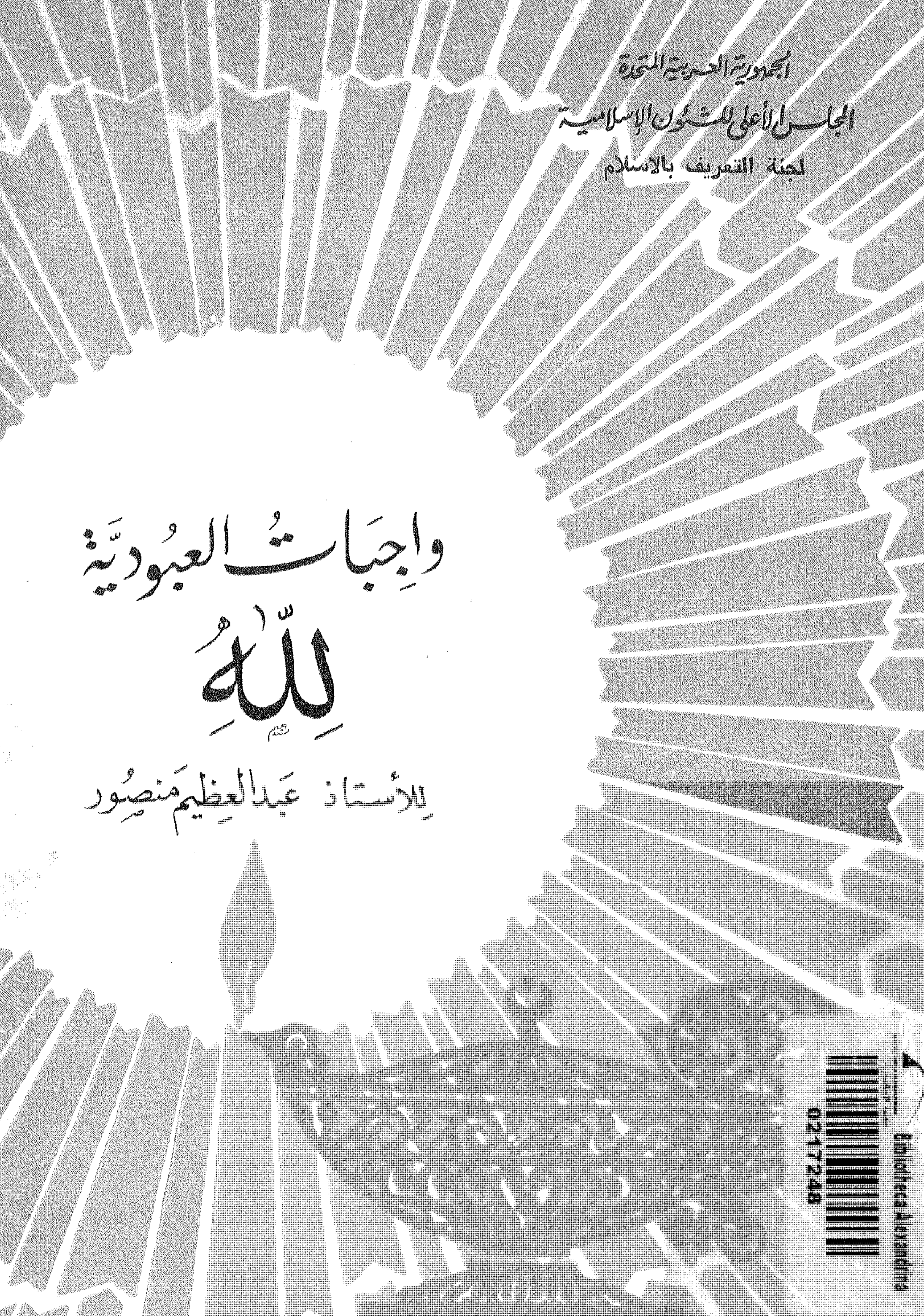


الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالاسلام

واجبات العبودية لله

للأستاذ عبد العظيم منصور

الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

واجبات العبودية لله

للأستاذ عبد العظيم منصور

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب
السابع والستون

القاهرة
١٣٩٠ هـ — ١٩٧١ م

اهـداء

الى السيد / حسين الشافعى

عندما فرغت من كتابى « الاخلاق وقواعد السلوك فى الاسلام » وأصبح صالحا للطبع وجدتنى مدفوعا دون تفكير سابق بالرغبـة فى عرضه على السيد / حسين الشافعى ليقدم له — ان اقتنع بما حواه — باعتباره النظام الكفيل بتحقيق حياة حرة عزيزة تليق بكرامة الانسـان وباعتباره النظام الكفيل بانتشال البشرية من الوهدة التى تردت فيها بسبب حيدها عن أمر ربها وغفلتها عن رسالتها ومصيرها .

ولعلنى لا أكون مجاوزا الحقيقة ان قررت وأخذت على ذلك عهدى أن ما دفعنى الى ذلك هو حديث رواه الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « خيـاركم من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ، ويرغبكم فى الآخرة عمله » وقد ازداد يقينى بصدق رؤياى هذه واختيارى له عندما جلست بصحبته لاتلقى منه شرحا وافيا على مدى ما يقرب من الساعتين ، لم يتوقف خلالهما لحظة ، يتكلم عن الاسلام دين الرحمة للبشرية كافة ، وقد سلم الى بعدها مقدمة الكتاب ، ثم خرجت بعدها وصوت الحق يملأ نفسى فى قول الرسول عليه السلام « خياركم من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ... »

ولا يفوتنى أن أسجل بمنتهى الاعزاز والاكبار أنى وأنا جالس استمع اليه نسيت تمـاما أنى مع رجـل من رجال الحـكم الذين يتولون أمورنا ، ولكنى سرعان ما تذكرت أن من أعز الرجال على الله ، وعلى المؤمنين ذلك الرجل الذى اذا عاش بين الناس وهو واحد منهم

كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه واحـد منهم دون تجبر أو تكبر واستعلاء وتلك طبيعة المؤمنين العظماء •

وعندما فرغت الى نفسى أقرأ مقدمة الكتاب مضافا اليها ما لم أكن أعلمه عن الرحمة بمفهومها الشامل العميق الذى بسطه بمنطق الحكماء ، وتثبت العلماء ، وكأنما ورد رأس الماء من عين الحياة عذبا صافيا زلالا ، أخذت على عاتقى أن أنقل ما سمعته وأدركته عن الشافعى الى غيرى استجابة لمـا أمرنا الله به فى قوله تعالى : «ليبيننه للناس ولا يكتمونه» وتنفيذا لطلب رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم :

ليبلغ الشاهد الغائب فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه•

وهاأنذا أضمن فاتحة كتابى الجديد « واجبات العبودية » — وهو الكتاب الذى أفردته بأبوابه وفصوله للحديث عن الثمن الذى ينبغى أن يدفعه الانسان فى حياته الدنيا من أجل حياة أخرى لا تقاس بملايين السنين لانها الخلود — الحديث عن الرحمة وفاء بحق العلم وتوفيـة لواجبات الامانة أظهر واجبات العبودية لله فى الارض •

لقد أشار سيادته فى حديثه كأول علامة على الطريق وكمدخل يتقدم به بين يدى الكلام عن الاسلام دين الرحمة• الى أنه يفضل دائما الحديث عن الافكار الكلية كمنهج علمى للبحث لان فهم الكليات ييسر فهم الجزئيات كما ييسر للباحث أن يتتبع نظريات الاسلام وتشريعاته ورأيه فى المـال والحكم والمعاملات والعبادات وعلاقات الافـراد ، والروابط بين أمم الارض وشعوبها ، والعـلاقة بين الدنيا والآخرة وبالجمـلة الوقوف على ما جاء به الاسـلام لتستقيم للناس دنياهم وأخراهم على أفضل ما تستقيم عليه الحياة ولا تستقيم على سواه •

وايضاحا لمـا أردت الوصول اليه على ضوء ما فهمت ، أشير الى أن من حقائق الاسلام الكلية أنه نظام « ربانى » وهذا يستوجب أن يكون كاملا لانه من عند الله الذى يعلم ما كان وما يكون ووضع كل

شيء فى مكانه الذى لا يليق به سواه تعلمه سبحانه وتعالى بوجوه المصالح جميعها فى الآجل والعاجل ، وعلى هذا تكون الاحكام التى جاءت بها الشريعة الاسلامية فى غاية الاحكام والاتقان فى كل ما يتعلق بشئون الدنيا والدين ٠

ومن الافكار الكلية أيضا « الثبات » بمعنى أن الاحكام التى جاءت بها الشريعة الاسلامية وهى الشريعة الخاتمة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ولو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية والتكليف كذلك ، لانها جاءت تلبى أشواق البشرية وتطلعاتها عبر القرون والاجيال وفى مختلف أحوالها ، وهذا ما يلمسه الباحث فى كل ما جاءت به الشريعة من أصول ليست مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى ، حيث اكتفت فى كل أصل بتقرير القاعدة العامة ، خشية ان وضعت التفصيلات ابتداء ، أن تصاب القاعدة بالجمود والتحجر ، الامر الذى يحول دون تطورها وفقا لمقتضيات الزمان والمكان ، وذلك ظاهر جدا فى مبدأ الشورى حيث أمر الله نبيه بمشاورة المسلمين فى قوله تعالى « وشاورهم فى الامر » دون أن يضع سبحانه وتعالى طريقا معينا لاستخلاص الرأى من المسلمين تاركا ذلك لصاحب الولاية عليهم فيما يرى الرجوع اليهم فيه وفقا للزمان والمكان ودرجة المسلمين من الدين والعلم والتقوى وصلاحية كل منهم للوقوف على رأيه فيما يمس أمور المسلمين ٠

والرحمة هى الغرض من هذا الدين القيم رحمة بالفرد ، ورحمة بالمجتمع ورحمة بالبشرية ، فقال تعالى فى محكم آياته :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ٠

فالرحمة إذن ليست هى الشفقة فى كل حالاتها لان الغرض من الشريعة الاسلامية هو اخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور ما حرفته يد الانسان من أديان الى عدل الاسلام ، وتحقيق ذلك لن يكون الا بتنفيذ أحكام الاسلام وعلى الحد

الذى حدته الشريعة دون نقصان فيها أو زيادة عليها ، وبذلك تتحقق الرحمة بالفرد وبالمجتمع وبالانسانية كلها •

وتبيانا لذلك نقول ان الله سبحانه وتعالى جل ثناؤه وتقدست أسماؤه لما خلق العباد وخلق الموت والحياة وجعل ما على الارض زينة لها ليبلو عباده ويختبرهم أيهم أحسن عملا ، لم يكن فى حكمته بد من تهيئة أسباب الابتلاء فجعل فى أنفسهم العقول الصحيحة والاسماع والابصار والارادات والشهوات والقوى والطبائع والحب والبغض والميل والنفور والاخلاق المتضادة ، ثم أكد أسباب هذا الابتلاء بأن وكل بها قرناء من الارواح الشريرة الظالمة الخبيثة ، وقرناء من الارواح الخيرة العادلة الطيبة ، وجعل دواعى القلب وميوله مترددة بينهما ، فهو الى داعى الخير مرة والى داعى الشر مرة ليتم الابتلاء فى دار الامتحان ، وتظهر حكمة الثواب والعقاب فى دار الحق الذى قامت عليه السموات والارض • وكان من كمال فضله سبحانه وتعالى ورحمته بخلقه وعدله أن أرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه ليتم ما اقتضته حكمته فى خلقه وأمره ، ولم يكتف سبحانه وتعالى بذلك حتى عرف البشر بكل ما شرعه لهم تفصيلا على ألسنة رسله ، وقطع معاذيرهم بأن أقام على صدقهم من الادلة والبراهين مالا يبقى معه للبشر على الله حجة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحى من حى عن بينة ، وصرف لهم سبحانه وتعالى طرق الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وضرب لهم الامثال ، ومكنهم من القيام بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه غاية التمكين وأعانهم عليه بكل سبب وسلطهم على قهر طباعهم بما يجرهم الى ايثار العواقب على المبادىء ، ورفض اليسير الفانى من اللذة الى العظيم الباقى ، والقليل المنقطع بالكثير المتصل، والحاضر الفائت بالغائب الدائم، فتبارك اللهرب العالمين وأحكم الحاكمين وأرحم الرحمين •

فكان من حكمته سبحانه وتعالى ورحمته أن شرع العقوبات فى الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض فى النفوس والابدان والاعراض والاموال كالقتل والجراح والقذف والسرقة فأحكم سبحانه وتعالى

وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الاحكام ، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجانى من الردع ، حتى تنقطع الاطماع عن التظالم والعدوان ويقتنع كل انسان بما أتاه مالكه وخالقه فلا يطمع فى استلاب غيره حقه فى الحياة والحرية وهذا مظهر من مظاهر الرحمة فى مجال تنفيذ الاحكام التى جاءت بها الشريعة الاسلامية حفظا للنفس والعقل والعرض والمال والدين فلا شك فى تنفيذ الاحكام رحمة بالجانى فى الدنيا وفى الآخرة ، ورحمة بالمجتمع اذ بقاؤه بين أظهر عباده مفسدة لهم ، ولا خير يرجى فى بقائه ولا مصلحة •

وتحقيقا لذلك نرى النبى صلى الله عليه وسلم يرفض رفضا حاسما الوساطة أو الشفاعة فى الحدود فأعلنها صريحة حاسمة بأن « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره » •

وعلى مستوى الدولة تتحقق الرحمة بالمحكومين بأن تضع الدولة فى متناول أيديهم ما به تستقيم دنياهم وتصلح أخراهم ، فتعطى العقول حقها من حرية التفكير ، والالسن نصيبها من حرية القول ، والنفوس قسطها من الجرأة والشجاعة ، وتنمى فى صدورهم حب الانسانية ، وتقتلع من نفوسهم الاهواء والاغراض والشهوات وتغرس فيها طبائع الخير والبر والرحمة والوفاء حتى تتقلب النفوس فى مراتب العزة والكرامة ، وترضى من طيبات الحياة بالحرية على مختلف صورها وتأخذ من الدنيا بنصيب صفا من كدر الاحقاد والانانية ، وأن تعمل الدولة على تكوين رأى عام قوى بين أفراد الامة وجموع المسلمين وذلك بالعمل على تحقيق التشابه بين مختلف الافراد عن طريقه تتحقق الالفة والتضامن والتماسك والوحدة فيتقدس الهدف وتسمو الغاية •

ولكن ليس حسن النية بالمحكومين أن يترك الافراد أحرارا بأن يفعل الحاكم ما يهوونه ويترك ما يكرهونه ، لان فى ذلك من المفاسد مالا تستقيم به أحوالهم وتنتظم أمورهم ، بل للدولة أن تضع من القواعد المناسبة

ما تضمن بها سيطرتها على تصرفاتهم وضبطها لسلوكهم بما يحقق صالح الحكام والمحكومين .

وقد قال تعالى :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن »

وقال تعـالى :

« واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم »

وانما حسن النية بالمحكومين والاحسان اليهم بفعل كل ما ينفعهم فى الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه ، لكن يجب الرفق بهم فيما يكرهون. وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« ما كان الرفـق فى شىء الا زانـه ، ولا كان العنـف فى شىء الا شانه » (1) .

« ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » (2) .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول :

« والله لأريدن أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف أن ينفروا عنها فأصبر حتى تجىء الحلوة من الدنيا فأخرجها معها فاذا نفروا لهـذه سكنوا لهذه » (3) .

والكلمة الطيبة من الحاكم للمحكوم ومن كل من يتولى ولاية من الولايات لمن دونهم نوع من الرحمة وهذا ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا جاءه طالب حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القـول .

---

(1) ، (2) السياسة الشرعية ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(3) السياسة الشرعية ص ١٣٥ .

وسأله مرة بعض أقاربه أن يوليه على الصدقات ويرزقه منها فقال « ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » فمنعهم اياها وعوضهم من الفيء • وتحاكم اليه على ، وزيد ، وجعفر ، فى ابنة حمزة ، فلم يقض بها لواحد منهم ، ولكن قضى بها لخالتها ، ثم انه طيب قلب كل واحد منهم بكلمة حسنة فقال لعلى : « أنت منى وأنا منك » وقال لجعفر « أشبهت خلقى وخلقى » وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فهكذا ينبغى لولى الامر فى قسمه وحكمه ، فان الناس دائما يسألون أولى الامر مالا يصلح بذله من الولايات والاموال والمنافع والجود والشفاعة فى الحدود وغير ذلك فيعوضهم من جهة أخرى ان أمكن أو يرد بميسور القول ما لم يحتج الى الاغلاظ فان رد السائل يؤلمه خصوصا من يحتاج الى تأليفه » [٤] •

وتنفيذ كل هذه الامور وأشباهها ونظائرها على مستوى الدولة فى مجال العلاقة بين الحكام والمحكومين رحمة بالمزيج الذى تتكون منه الدولة وهم الحكام والرعايا •

والحكم بالعدل والتسوية فى المعاملة بين المحكومين على أساس ما لكل من حقوق حسب الامكانيات الطبيعية والمكتسبة والانتفاع بالظروف رحمة •

واستعمال الاصلح ثم الامثل فالامثل على الاموال ، وذلك باختيار الامناء القادرين ، وابعاد الضعفاء المتهمين الخائنين رحمة •

والضرب على أيدى الظالمين بقسوة لا تعرف الضعف حتى تتألف الاهواء المختلفة، وتجتمع القلوب المتفرقة، وتكف الايدى المتغالبة وتنقمع النفوس المتعادية • والانصاف للمظلومين من الظالمين وموالاة الضعفاء والعاجزين رحمة :

---

(٤) السياسة الشرعية ص ١٣٥ .

والنصح للامة أخذا بيدها الى ما فيه صلاح دينها ودنياها رحمة •

والامر بمعروف ظهر تركه والنهى عن منكر ظهر فعله ، ومطاردة أصحاب البدع والمنكرات المارقين من الدين أعداء الله وأولياء الشيطان فى كل مكان تحت أى شعار رفعوا ، وفى أى لباس ظهروا ، وعلى أية صورة نتأوا رحمة بالمجتمع •

وفى مجال الروابط الاسرية فان الذل للوالدين زيادة فى الرحمة يأتى من كرامة فى النفس ولا يأتى عن هوان فيها قال تعالى :

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة »

وتقويم خطأ المرأة بالوعظ والنصيحة وبالاعراض والهجر وبالتأديب وبالتحكيم بين أهل الرجل وأهل المرأة اذا استعصى الوفاق بينهما ، وعدم اخراجها من بيت زوجها الا أن تأتى بفاحشة مبينة رحمة بما يتحقق للبيت من أسباب الراحة والطمأنينة والسكينة لشباب الغد من أبناء ، ولامهات المستقبل من بنـــات •

وهكذا تتحقق الرحمة الغاية من هذا الدين القيم بتحقيق قصـــد الشارع الحكيم من وضع الشريعة للتكليف بمقتضاها ومن جهة قصده فى دخول المكلف تحت حكمها ، حفظا للضروريات الخمس وهى الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، بحيث لو فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة ، وفى الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين •

أما الرحمة بمعنى الشفقة فلا تكون الا لذوى الزلات وأصـــحاب الخطيئات يبذلها رقيقو القلوب وأصفياء النفوس وأصـــحاب الفطر السليمة ، لمن ضل السعى فى الطريق أو التاث عليه السبيل واشتبهت عليه معالم الجهات لتكون نورا يضىء للانسان ما أظلم من حياته وضياء تتسع به نفسه ، ليستقيم على الطريق ، ويستأنف السعى من جديد فلا يضل ولا يشقى •

ومن قبيل ذلك فان العطف على الطبقات الضعيفة التى تســتتر وراء أحزانها وهمومها ، وتتوارى فى خضم الحياة دون أن يشعر أحد بها ، رحمة ، يطلبها الاسلام ويثنى عليها الرحمن ، فمن ضم يتيما الى طعامه وشرابه وجبت له الجنة ، ومن أعطى سائلا ، ومنح قاصدا ، وأعان ملهوفا ، وحمل كلا ، وأعان مكروبا ، فهو رحيم القلب مستوجب للأجر . وقبول العذر ، وغفران الذلة ، والعفو عن الذنب ، والتجــاوز عن السيئات رحمة .

ولقد تجلت الرحمة قوية عملاقة فى سلوك النبى الكريم عندما تم له فتح مكة على رأس عشرة آلاف مقاتل يحرصون على الموت حرص الكافرين على الحياة ، وكان من الممكن أن يقتص النبى صلى الله عليه وسلم لمظالم السنين السابقة التى حلت بالمسلمين على أيدى الكفار على مدى السنين والاعوام ، ولكنه على ما وصفه ربه « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » عفا عنهم وأمنهم على دمائهم وأعراضهم ولم يزد على أن قال لهم يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ، قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه عجالة عن بعض مواقع تحقيق الرحمــة الغاية العظمى من الاسلام ، سقنا عينات منها ضربنا بها الامثال ، وفى تبيانها ما يفى بباقيها .

والقرآن الكريم هو ميثاق الرحمــة للعالمين بكل ما جاء به من أحكام ، أحل وحرم ، وأباح وحظر ، واستحب وكره ، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد ترغيبا وترهيبا ، بحيث تنتظم أمور البشر الدينية والدنيوية .

ولن تتحقق الرحمة الا اذا وقف المسلم تحت الامر والنهى امتثالا لامر ربه ، ولن يقف حيث أمره ربه ، ويفتقده حيث نهاه ، الا اذا عمل كل مسلم على تنمية ضميره ، حتى يصبح رقابة داخلية على كل تصرفاته وسلوكه ، هذه الرقابة النابعة من ضمير المسلم الحى اليقظ الذى يرعى

الله ويذكره دائما من خلال الحديث الشريف : « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« اياك اياك أن يراك حيث نهاك » .

هذا ما فهمته عن الرحمة كما يؤمن بها ويتحدث عنها السيد / حسين الشافعى باعتبارها الغاية العظمى من الدين الاسلامى ، رأيت وفاء بواجبات العبودية لله فى الارض أن أبلغها لغيرى كشاهد لما سمعته وعسى أن يبلغ الشاهد من هو أوعى له منه ، على أن يكون البلاغ استهلالا لكتابى « واجبات العبودية » الذى رأيت اهداءه الى سيادته وفاء للمؤمنين الصادقين الذين يتحرقون شوقا الى مشرق الاسلام من جديد ، ليأخذ بيد البشرية الى حيث الامن والطمأنينة والسلام .

مقدمة

التعريف بواجبات العبودية

الحمد لله كتب العزة والكرامة لمن اطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وزعيمنا وقائدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه الذين وردوا رأس المساء من عين الحياة عذبا صافيا زلالا فأضاؤا بنور العلم ما اظلم من حياة البشر ، وأحيوا بنور اليقين وحلاوة الايمان ما أجدب من قلوب ماتت فى صدور أصحابها ، وأجلسوا على كراس العزة والكرامة مجتمعات عاشت طويلا فى مهاوى الذلة والمهانة ، وثلوا عروشا طالما تجبر أصحابها تحت سلطانها ، وأقاموا نظاما للدين والدنيا يؤدى رسالة الحق والعدل والسلام ، سعدت البشرية طويلا فى ظله وتحت حكمه ، فكانوا بحق أمنة للبشرية وعصمة لها من التصدع والانهيار ، كما كانوا بصدق شموسا طلعت فى سماء الانسانية مرة ولا تطمع الانسانية ان تطلع فى سمائها شموس من طرازهم وعلى شاكلتهم مرة أخرى •

لقد خلق الله سبحانه وتعالى البشر وكلف الخلق متعبداته والزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم ، وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم ، كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه، بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم • لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفعى الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر فضلا • وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع ، فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع ، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل ، لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل ، والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع ، فلذلك توجه

التكليف الى من كمل عقله ، فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما احله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه ، وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن معصية لذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينـــا •

فالشرائع اذا وضعت لحكمة ومصلحة ، والمصلحة إما أن تكـــون راجعة الى الله أو الى العباد ورجوعها الى الله محال لانه غنى ويستحيل عود المصالح اليه فلم يبق الا رجوعها الى العباد ، وتحقيق مصالحهم وفق أمر الشـــارع وعلى الحـــد الذى حده لاعلى مقتضى اهوائهـــم وشهواتهم ، بل وضعت الشريعة لاخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا ، كما هو عبد لله اضطرارا ، وحق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شـــيئا ، وعبادته امتثـــال أوامره واجتناب نواهيـــه •

وعلى هذا فان كل انسان منا مخلوق لواجبات يؤديها ولحقـــوق تتقاضاها فعلة الخلقة هى خدمة الحق ومن لم يخدم الحق لم يقم لله بواجب الخلقة ، لذلك فان من يبتغ فى تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ضاد الله فى أمره ، فهو مستهزىء بآيات الله لان من آياته أحكامه التى شرعها ، وقد قال سبحانه وتعالى بعد ذكر أحكام شرعها :

« ولا تتخذوا آيات الله هزوا » •

ولذلك قيل للمنافقين حيث قصدوا باظهار الاسلام غير ما قصده الشـــارع •

« أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » •

والامثلة على ذلك كثيرة كاظهار كلمة التوحيد قصدا لاحراز الدم والمــال لا الاقرار للواحد الحق بالوحدانية ، والصلاة لينظر اليه بعين الصلاح والذبح لغير الله وبسط اليد ليشاع عنه انه رجل الكرم والجود ، والهجرة لينال دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها والجهاد للعصبية أو لينال شرف الذكر فى الدنيا ، والوصية بقصد المضارة للورثة ونكاح المرأة ليحلها لمطلقها •

وما أحــوج الانسان اليوم الى استشعار واجبــات اعلبودية لله فى الارض فى وقت سقط فيه سلطان الضمير فاختلت القيم ، وتوارت المثل العليا من حياة البشر ، وضــل الانسان السعى واضطرب أمامه الطريق ، واشتبهت عليه معالم الجهات ، بسبب المحن التى ابتليت بها الانسانية ، فلم يبق للدين سلطان على أرواحهم وقلوبهم ، ولا تأثير له فى أخلاقهم واجتماعهم ، ولا وازع له على ضمائرهم واتجاهاتهم ، فسارت بالناس الاهواء كل مذهب ، وعصفت بهم ريح الحياة الى حيث المطامع والمطامح والاغراض والشهوات ، دون نظر الى مــدى قربها أو بعدها من مادة الدين ، ودون ادراك لمدى اسخاطها أو ارضائها لله رب العالمين ، ودون تقدير لفداحة الذنب وسوء المنقلب والمصير •

لقد كانت العقيدة بكل عمقها واتساعها وشمولها وبكل ما تحمله وتفرضــه هى مركز تجمــع المسلمين وملتقى وحدتهم ، يلتقون حولها ويضحون من أجلها ويتحملون المشقة والمتاعب ويبذلون النفيس وما لا يقبــل البشر على بذله من مال ونفس وولد فى ســبيل الدفاع عنها والتمكين لها ينطلقون منها من أجل الحفاظ عليها ، ويعودون اليها كلما حز بهم أمــر أو نزلت بهم نازلة يحكمونها فى تصرفاتهم وأقضيتهــم ومنازعاتهم فيما بينهم وبين غيرهم وفى حربهم وسلمهم ، وعلى أساسها وعلى مقتضى أحكامها نشأت العلاقات بين أبنائها ، وكان الواحد منهم يحدد علاقاته بغيره على أساس القرب أو البعد من مادة الدين وعلى أساس الاستمساك بأهدابه والتمسك بأحــكامه مهما كانت أوضاعه الاجتماعية متمثلة فى المركز والمكانة أو أوضاعه الاقتصادية متمثلة فى القدرة المادية •

ووضع المسلمون نصب أعينهم شريعة الاسلام يردون اليها أعمالهم ويأخذون أنفسهم بأحكامها فى الدماء والاعراض والاموال وفى الاقوال والافعال وفى الحرب والسلم وفى العهود والمواثيق ، ويصرفون الهمم والقوى لعلاج القلوب والارواح وحفظ صحتها ودفع اسقامها وحمايتها مما يفسدها ، حتى حقق الاسلام بأبنائه الذين انحازوا اليه مجتمعا عادلا متوازنا ليس فيه مكان للاهواء والاغراض والشهوات فلاضاع حق ولا انتهكت حرمة ولا اعتدى على عرض ولا قتلت نفس بغير حق ولا تقاعس انسان فى الانتصار لحقه ولا تردد فى الانتصار لحق غيره ، وعمل كل مكلف ما وسعته الطاقة وعلى الحد الذى رسمه المشرع الحكيم على الوقوف عند حدود الشريعة وحمل نفسه كارهة أو راضية على أن تسير مع الحق اينما سارت ركائبه وان تستقل مع الصواب حيثما استقلت مضاربه .

وكان الاسلام ما كان المسلمون على البر والوفاء لاحكامه فلما نسوا ما ذكروا به فتح الله عليهم أبواب كل شىء وأخذهم بأفعالهم فتداعت عليهم الامم كما تداعى الاكلة على قصعتها وتلك طبيعة الكون وسنة الحياة ، نازع المسلمون أهل الدنيا فى دنياهم ، فلا دنيا أصابوا ولا دينا أبقوا ، وبابتعاد المسلمين عن حظيرة الدين نقضت عرى الاسلام عروة عروة ، فلم يعد لاحكام الدين سلطان فى واقع المجتمعات الاسلامية فى تشريعاتهم واقضيتهم واخلاقهم وعباداتهم ومعاملاتهم .

وظلت الايام تترى وتتتابع ، والبعد عن حظيرة الدين يقوى ويتأصل ويتعمق الى أن أتى على المسلمين زمان فقد المسلمون فيه الصبغة المتفردة والمتميزة التى أرادها الله لهم بين أمم الارض وشعوبها ، كما فقد المسلمون السمة البارزة التى زينت جبينهم فى الصدر الاول وهى سمة الامة الوسط المتزنة المتوازنة وتبع ذلك وصاحبه هبوط مردى فى القيم والاخلاق بحيث أصبح سالف الموروثات وسابق العادات مركز التجمع وأساس التعارف بين البشر حتى ولو تنافرت مع الدين وتنكرت لأحكامه وأخلاقه ، فأصبحت المصالح المادية الجامحة

الغلابة التى لا ترعى حقا ولا تراعى حرمة هى الرباط القوى الذى يربط الاحاد المتفرقة أحيانا ، كما غدت الاحساب والانساب والقرابة وليست اعمال الناس ومعارفهم هى مصدر قوة الجذب التى تلتقى عليها مجموعات من البشر مهما كان بعدها أو قربها من صالح الجماعة الاسلامية ، وأحيانا أخرى قد تكون الشهوات والرغائب غير الاخلاقية هى ملتقى طوائف أخرى من البشر يتجمعون من أجلها ويتفرقون عند افتقادها . أما الميزان الراجح الذى وضعه الحق تبارك وتعالى ليكون أساس التفاضل بين البشر ، وأما الاخوة العاقلة الرشيدة المشدودة بروح الاخلاص المؤزرة بمنطق العقائد فقد توارت فى الافق البعيد بحيث لم يبق منها الا اسم تلوكه الالسنة احيانا وهو ابعد ما يكون عن واقعهم واغرب ما يتصور فى تصرفاتهم ومعاملاتهم ، والمسلمون بسبب ذلك فى ظلمة حالكة حيارى مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، يتقلبون فى حياتهم على غير منهج مرسوم وعلى غير هدى من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، قد هانوا على أنفسهم كما هانوا على غيرهم وتلك طبيعة الكون وسنة الحياة .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

لذا رأيت أنه اصبح من واجبات العبودية لله فى الارض ، وقياما بواجبات الخلقة فى خدمة الحق أن أولى وجهى شطر الاسلام ، وقد انطلقت موجات الالحاد والشك ، وغدا كل ما فى الحياة على غير ما خلقه الله ، فاخترت « واجبات العبودية » ليكون موضوعات لهذا البحث باعتباره اظهر ما يمكن الكتابة فيه من موضوعات لارتباطه ارتباطا وثيقا بمصير الانسان فى الدنيا والاخرة ، وباعتباره الإساس المكين للتمكين للدين واقامته سواء من ناحية الوجود او من ناحية العدم ، وباعتباران فى الاسلام زاد للامم الانسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الازواد أو تكاد ، وأن فيه الوفاء بحياة حرة لسائر البشر كلما تقدموا فى معارج الرقى والادراك .

وواجب العبودية لله لابد له من مؤمن مخلص يقوم به ويؤديه بصحبة الله عن طريق الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ؛ فيعبد الله كأنه يراه ، فأن لم يكن يراه فانه يراه ، بمعنى أن يجده ربه حيث أمره ويفتقده حيث نهاه .

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » • سورة الحج

« ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » • سورة الحج

وهذا يعنى وقوف المؤمن تحت الامر والنهى امتثالا لامر ربه ، وهذا غاية العبودية لله فى الارض وفيه الوفاء بواجبات الخلقة فى خدمة الحق •

ولما كانت واجبات العبودية من الاتساع والعمق والشمول وتتمثل فى اقامة الدين من ناحيـة الوجـود واقامته من ناحيـة العـدم ، واعنى بالناحية الأولى تنفيذ ما جاءت به الشريعـة وعلى الحد الذى حـددته واعنى باقامة الدين من ناحية العدم محـاربة كل منـكر ظهر فعـله ، والأمر بكل معروف من الدين ظهر تركه ، لذلك رأيت ان اعالج واجبات العبودية فيما يتعلق باقامة الدين من ناحية العدم ، باعتبارها اظهر ما يمكن تقديمه فى تلك الفترة من حياة البشرية وقد انحرفت عن مسيرها فى امور دينها ودنياها فضل بها السير ، واضطرب امامها الطريق ، واشتبهت عليها معالم الجهات وأوشك ان يعمها الله بعقاب من عنده جزاء تفريطها بحيدها عن امر ربها وغفلتها عن مصيرها •

كما رأيت ان اكتفى باظهر ما يجب اقامته من معروف ظهر تركه بعد انسحاب المسلمين من ميدان الحياة وتنازلهم عن قيادة العالم ، وتخليهم عن الزمام والقياد وغفلتهم عن الدور الخطير الذى وكله الله اليهم ، والقاء على عاتقهم الى يوم القيامة وهو اخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فاصاب البشرية ما اصابها فأصبحت تائهة فى بيداء المهـالك والضلالات •

وتمشيا مع وجهـة النظر قسمت البحث الى بابين فى البـاب الاول بفصوله استعرضت فى الفصل الاول حقائق عن الاسلام ، وفى الفصل الثانى اشرت الى مسئولية القيام بواجبات العبودية • والباب الثانى من البحث بفصوله خصصته للحديث عن أظهر واجبات العبودية •

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة شريعته والعمل على طاعته باعتبارهما خير زاد ليوم الميعاد •

الباب الأول

حقائق عن الإسلام، ومسئولية القيام بواجبات العبودية

رأيت أن أستعرض فى هذا الباب بفصوله حقائق عن الاسلام كعلامات على الطريق يهتدى بهـا كل من انحاز الى حظـيرة الدين واندرج فى زمرة المسلمين ، يتمثلها فى كل تصرفاته ويعيها بعقله وقلبه ، وينطق بها لسانه ويجيش بها خياله ، ولا يغفل عنها أبدا ، وخصوصا وقد خفيت تلك الحقائق عن جهل بها أو عن نسيان لها ، وأولى هذه الحقائق هى أن الدين الاسلامى بمقاصده وأحكامه وأدلته هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده الى أن تقوم الساعة ، والشريعة التى كلف الله بها نبيه لنقل أحكامها الى البشرية هى الشريعة الخاتمة ، فلا شريعـة بعـدها ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، والحقيقة الثانية وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بالحقيقة الاولى هى أن تنفيذ أحكام تلك الشريعة فرض على كل مسلم الى أن تقوم الساعة يعمل بها ، ويعمل من أجلها ما وسعته الطاقة وأن بقاءها والتمكين لها يتوقف بالدرجة الاولى على مدى الجهد المبذول فى الوفاء بأحكامها ، وفى الفصل الثانى من هذا الباب تم تخصيصه للحديث عن مسئولية اقامة أحكام الدين ورعايتها وحمل الناس على الالتزام بها .

الفصل الأول

حقائق عن الإسلام

نتحدث فى هذا الفصل عن حقيقتين من أهم الحقائق وأخطرها التى تفرض على كل مسلم أن تستيقنها نفسه باعتبارهما مقدمة لازمة لكل من يريد الدخول فى الاسلام والذود عنه ، وهما ان الشريعة الاسلامية شريعة الهية عالمية أنزلها الله جل شأنه على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغها الى الناس كافة على اختلاف مشاربهم وتباين عاداتهم وتقاليدهم والحقيقة الثانية وهى أن الحكم بها وانزال أحكامها فريضة لا خيار فى تركها والتخلى عنها أو استبدال أحكامها بأخرى غيرها •

الحقيقة الاولى : عالمية الشريعة الاسلامية

من الحقائق التى تتمتع بدرجة عالية من الاهمية ، وترتبط ارتباطا وثيقا بتبعات ومسئوليات المسلمين الدائمة والمستمرة ، وتفرض يقظة دائمة للحفاظ على الاسلام من أن تمتد الى أحكامه يد التغيير والتبديل ، أو الاستبدال والتعطيل تلك الحقيقة هى أن الشريعة الاسلامية هى الشريعة الخاتمة فلا شريعة بعدها وأن أحكامها المتمثلة فى خطاب المشرع الحكيم لسائر البشر أمرا أو نهيا او تخييرا ، هى الكفيلة بمواجهة متطلبات البشرية لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية والتكليف كذلك ، ولو فرض تقدم العقل البشرى وانتقال البشرية فى شتى نواحى الحياة المادية والمعنوية من طور الى آخر على طريق التطور والارتقاء • ووفاء أحكام الشريعة الاسلامية بمتطلبات البشرية مرجعه الى حقيقة سهلة الفهم وسهلة الادراك لمن صحت فطرهم واستقامت طرائقهم وهى أن أحكام الشريعة التى جاءت بها لحفظ الدين والعقل والنسل والنفس والمال هى من عند الله فهى كاملة بعيدة كل البعد ومنزهة كل التنزيه عن النقص والقصور وحسبها كمالا أن تكون من عند الله عالم الغيب والشهادة وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين ومن أحاط بكل شىء علما ، وأحاط علمه بوجوه المصالح جميعها دقيقها وجليلها ، خفيها

وظاهرها ما يمكن اطلاع البشر عليه وما لا يمكنهم ووضع كل شيء فى مكانه الذى لايليق به سواه ولا يتقاضى الا اياه كما وضع قوة البصر والنور المبصر فى العين وقوة السمع فى الاذن ، وقوة الشم فى الانف وقوة النطق فى اللسان والشفتين ، وقوة البطش فى اليد ، وقوة المشى فى الرجل وخص كل حيوان وغيره بما يليق به ويحسن أن يعطاه من أعضائه وهيئته وصفاته وقدره فشمل اتقانه واحكامه لكل ما شمله خلقه كما قال تعالى :

« صنع الله الذى أتقن كل شيء »

فاذا كان سبحانه قد أتقن خلقه غاية الاتقان وأحكمه غاية الاحكام فلأن يكون أمره فى غاية الاتقان والاحكام أولى وأحرى[1] .

واذا كانت الشريعة الاسلامية هى الشريعة الخاتمة فهى اذا لم تكن لشعب من الشعوب ولا لامة من الامم ، ولا لقبيل دون قبيل ، ولا لجنس من الاجناس أو لون من الالوان ، وهى كذلك ليست لزمن من الازمان أو جيل من الاجيال انما هى موجهة الى النفس البشرية والى الضمير الانسانى الى أن تقوم الساعة ويعرض الناس على بارئهم ومن سبق أن حملهم أمانة التكليف وتنفيذ أحكام الشريعة على الحد الذى حده المشرع الحكيم دون زيادة فيها أو نقصان . وعالمية الشريعة ظاهرة على صفحات الكتاب المقدس دون ايغال فى أعماقه أو اجتهاد فى أحكامه ، أو تردد بين الادلة المستقاة من الكتاب والسنة وغيرهما مما يستدل به على حكم فى مسألة من المسائل الشرعية .

وبهذا خاطب الله خاتم الانبياء والمرسلين يأمره ويبين له طبيعة الرسالة التى اصطفاه لنقل أحكامها وابلاغها الى البشرية فقال تعالى :

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » . سورة الاعراف آية ١٥٨ .

---

(١) اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ١٠١ .

وفى تفسيره هذه الاية يقول ابن كثير فى تفسيره أن الله سـبحانه وتعالى يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم (قل) يا محمد (يا أيها الناس) وهذا خطاب للاحمر والاسود والعربى والعجمى (انى رسول الله اليكم جميعا) أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته وانه خاتم النبيين وأنه مبعوث الى الناس كافة كما فى قوله تعالى أيضا :

« وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ » سورة آل عمران آية ٢٠ .

ولآيات فى هذا كثيرة كما أن الاحاديث أكثر من أن تحصر أو تستقصى ومن بينها قول النبى صلى الله عليه وسلم :

« أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى ولا أقوله فخـرا ، بعثت الى الناس كافة الاحمر والاسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الارض مسـجدا وطهورا ، وأعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتى يوم القيـامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا » .

وعالمية الشريعة الاسلامية فضلا عن تقـريرها على صفحات الكتاب المقدس فهى أيضا منادى بها فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وفى خطبه نكتفى منها بجانب من خطبة الرسول فى حجة الوداع التى تعتبر وثيقة عالمية ودستورا خالدا للبشرية جمعاء لا ينبغى أن ترتد بعده أبدا الى الوراء ، فبدأ صلى الله عليه وسلم خطبته موجها النداء الى البشرية جمعاء بقوله أيها الناس ولا زال يكررها حتى انتهى من خطبته فقـال :

أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ... أما بعد أيها الناس فان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أما بعد أيها الناس، فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشـكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشـة

مبينة .. أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ... (١)

واذا كانت عالمية الشريعة ظاهرة جدا بين الاية والحديث ، فان عالمية الرسالة ترجمت عن نفسها فى رسائل النبى صلى الله عليه وسلم الى الملوك والرؤساء يدعوهم الى الاسلام ، ويطلب اليهم الدخول فى حظيرة الايمان على النحو المعروف تاريخيا فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه ، وكتب معهم كتبا الى الملوك فبعث الى قيصر ملك الروم ، والى كسرى ملك الفرس والى النجاشى ملك الحبشة والى المقوقس ملك الاسكندرية وبعث الى ملكى عمان واليمامة والى ملك البحرين وملك تخوم الشام وغيرهم من الملوك والرؤساء يدعوهم الى الخضوع والاستسلام والانقياد لاله واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق .

ويترتب على عالمية الشريعة وانها من عند الله وانها الشريعة الخاتمة الحقائق التالية :

أولا : أنها جاءت بما جاءت به من أحكام لصلاح البشر فى دينهم ودنياهم فى تناسق تام وتوازن بين المعنويات والماديات بحيث لا تطغى احداهما على الاخرى ، فاتخذت فى كل ما جاءت به مسلكا وسطا غاية فى الاعتدال دون ميل الى هذه الناحية أو تلك فهى شاملة لكل أمور البشر الدينية والدنيوية لانها ربانية من عند الله ، وكفى بها كمالا أن تكون من عنده ، لا من صنع البشر وفيهم ما فيهم ما لا يحصى من نقص وعجز وقصور .

ثانيا : أن أحكامها حاكمة وليست محكوما عليها فهى ليست بهذه المثابة مجرد برنامج اصلاحى حمل الدعوة اليه قائد سياسى أو زعيم وطنى ، لا يلبث أن يهدأ اذا رأى أن دعوته الى الاصلاح قد نجحت كأن رأى حقا ضائعا استرده لاصحابه أو ظلما واقعا استطاع دفعه ، كما قد يكف ويهدأ اذا رأى دعوته الى الاصلاح قد أصابها الضعف والوهن أو منيت بالفشل انما الشريعة الاسلامية هى رسالة الانسانية كلها فهى موجهة للنفس البشرية وللضمير الانسانى ومن ثم فهى نظام كامل مستمر

(١) السيرة النبوية لابن هشام .

مكانها الارض بأسرها ، وزمانها للاجيال كلها ، والمخاطبون بأحكامها هم أمم الارض وشعوبها وأفرادها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم وهى ثورة دائمة مستمرة يحققها المسلمون فى أنفسهم ويدعون غيرهم اليها ويقاتلون كل من يقف فى طريق الدعوة الى اسماع رسالة السماء الى من لم تبلغهم الدعوة ، ويظلون قائمين على الحق والدعوة اليه لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم الى أن تقوم الساعة .

واذا حقق المسلمون الاسلام فى أنفسهم فهم مطالبون بالثبات عليه والمحافظة على حدوده واليقظة الدائمة المستمرة فى الحفاظ عليه والذود عنه وسل السيف من غمده اذا وقفت فى طريق الدعوة اليه أية قوة من قوى الارض جميعها تحول بين المسلمين وبين نقل أحكامه الى أمم الارض وشعوبها وأفرادها ، وهذه بلا شك تبعـة جسيمـة ومسئولية عظيمة ألقاها الله على عاتق المسلمين استجابة لامانة التكاليف ومسئولية هداية البشرية واخلاء الارض من الانظمة البشرية التى غايتها الدنيا وحدها حتى ولو تنافرت مع الدين وتنكرت لاحكامه .

الحقيقة الثانية : وجوبية اقامة النظام الاسلامى .

من الامور التى يؤمن بهـا المسلمون ايمانهم باله واحـد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، ان الاحكام التى جاءت بها الشريعة الاسلامية هى من عند الله أى ربانية ومن ثم فهى شاملة لكل أمور البشر الدينية والدنيوية من أحكام العقائد والعبادات وأحكام تنظيم الدولة والجماعة وتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكومين والحقوق المتبادلة بينهما ، كما تشتمل على أحكام بتنظيم علاقات الافراد والجماعات بعضهم ببعض من أحكام خاصة بالمعاملات والعقوبات والاحـوال الشخصية والاحـكام الخاصة بعلاقات الدول فى السلم والحرب وغير ذلك من أحكام تنتظم كل أمور البشر الدينية والدنيوية .

واذا كانت أحكام الشريعة ربانية شاملة فهى أيضا ثابتة غير قابلة للتغيير أو استبدال أحكامها بأحكام أخرى من صنع البشر أو تعطيل أحكامها وهذا ما أشار اليه الشارع الحكيم فى قوله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » سورة المائدة .

وينبنى عل كون الشريعة مقصودا بها اسعاد البشر فى الدنيا والآخرة أن تعتبر وحدة لا تقبل التجزئة وجملة لا تقبل الانفصام ويجب اقامتها حتما أمرا من عند الله •

ويكفينا أن نجتزىء جانبا من اشارات القرآن المتعددة والمتكررة التى توجب العمل بأحكامها وتنفيذها على الحد الذى أمر به الشارع الحكيم •

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » سورة الاحزاب •

فهذه الاية عامة فى جميع الامور وذلك أنه اذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لاحد مخالفته ولا اختيار لاحد ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » سورة النساء وفى الحديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » •

ولهذا شدد سبحانه وتعالى فى خلاف ذلك فقال (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) سورة الاحزاب • كقوله تعالى :

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » سورة النور •

ومن الايات التى أوجبت الحكم بما أنزل الله قوله سبحانه وتعالى :

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » الى قوله : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » سورة المائدة « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب » البقرة

الفصل الثانى

مسئولية القيام بواجبات العبودية

ان واجب العبودية لله لابد له من مؤمن مخلص يقوم به ويؤديه بصحبة الله عن طريق الامتثال لاوامره واجتناب نواهيه ، ومعنى صحبة الله صحبة أياديه ونعمه ، فمن صحب الاوامر بالتعظيم والامتثال وصحب النواهى بالبعد والانزجار وصحب القرآن بالتفكر ، وصحب الطاعة بالاخلاص فيها ، وصحب النعم بالشكر ، وصحب البلايا بالصبر ، فقد صحب الله عز وجل ، فلا يجده ربه الا حيث أمره ولا يفتقده الا حيث نهاه ، وهذا يعنى وقوف المؤمن تحت الأمر والنهى امتثالا لامر ربه وهذا غاية العبودية لله فى الارض وفيه الوفاء بواجبات الخلقة فى خدمة الحق .

والمؤمنون هم حملة أمانة التكليف ، وعلى كواهلهم تقع مسئولية القيام بواجبات العبودية ، يحققونها فى أنفسهم ويدعون غيرهم الى القيام بها والحفاظ عليها ولكن الدور الذى يقع على عاتق كل منهم يختلف من مؤمن الى آخر حسبما أوتى كل منهم من طاقة وقدرة ، وحسب نصيب كل منهم من فهم وادراك لحقائق الدين ، وحسب مركز كل منهم ومكانته فى المجتمع الاسلامى .

لذلك فهم المختصون بالذكر ، المعنيون بالخطاب ، الموعودون بالنصر والتمكين فى الدنيا ، وبالنعيم المقيم فى الآخرة ، وما أكثر ما ازدحمت به صفحات القرآن الكريم من آيات ، تنادى المؤمنين ، وتعقد مسئوليتهم عن اقامة الدين ، وتبشرهم بالغلبة على من يخذلهم أو يبغى عليهم ، وتعدهم بما أعده الله لهم من طيبات الآخرة والخلود بجانب موجد الكون ومانح الوجود .

ومن خطاب الله الى المؤمنين نجتزى بعضا من الآيات التى ساقها الله على صفحات الكتاب المقدس على سبيل التمثيل لنرى الدستور الواضح من المسئوليات والتبعات التى ألقاها الله على كواهلهم وحملها اياهم باعتبارهم الامناء على رسالة السماء فهم حراس الله فى الارض كما أن هناك حراسا فى السماء .

ففى وصفهم والاشادة بسلوكهم قوله تعالى :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقرا ومقاما ، والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، الا من تا بوآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما » سورة الفرقان .

وعن العهد والميثاق الذى أخذه الله على نفسه بالدفاع عن عباده المؤمنين يدرأ عنهم شر الاشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم قوله تعالى :

« ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور » سورة الحج .

« وكان حقا علينا نصر المؤمنين » سورة الروم .

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » سورة المائدة .

وفى توعد الله لكل من يتعرض لهم بايذاء يقول سبحانه وتعالى :

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » سورة الاحزاب •

والمؤمنون هم العدة البشرية التى يعتمد عليها الاسلام فى قتال الاعداء اذ لا نفع للمسلمين فى ضعيف متردد متخاذل ولا مذبذب مضطرب فهؤلاء يجب أن يبتعدوا عن صفوف المؤمنين ويمحوا من صحيفة المجاهدين •

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » « سورة الانفال »

وفى أوقات الحروب وفى ساحات الشرف والفداء هم الذين يقدمون أرواحهم رخيصة فى سبيل الحق واعلاء شأن الدين •

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » سورة الاحزاب •

وفى وصفهم عندما تهيج نيران الحروب قوله تعالى :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » النور •

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » سورة الحجرات آية ١٥ •

« ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » سورة الاحزاب

وفيما يخبر به الله تعالى عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين فى الدنيا والاخرة ووراثة الارض قوله :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون » سورة الانبياء •

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فـى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » سورة النور •

وعن الوعد القاطع للمؤمنين بالنعيم المقيم فى الآخرة قوله تعالى :

« ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد » سورة الحج •

وفى مجال الآداب الاجتماعية والخلقية

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » سورة النور •

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » سورة النور

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن » سورة النور

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يـكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب » سورة الحجرات

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » سورة الحجرات

وفى مجال الوفاء بالعقود والعهود قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » سورة المائدة

وفى سلوكهم مع بعضهم ومع غيرهم من الكفار

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم

ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » سورة الفتح

والرابطة التى تربط المؤمنين هى الرابطة المقامة على عقيدة التوحيد المشدودة بروح الاخلاص •

« انما المؤمنون اخوة » سورة الحجرات

وهم المطالبون باقامة شعائر الدين من صلاة وجهاد فى سبيل الله واعلاء كلمته •

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » سورة الحج

وهم المأمورون بالقيام بالوفاء بكل ما أخذ الله عليهم الوفاء به شاهدين بالعدل والقسط دون محاباة أو مجاملة لاحد أيا كان قدره وأيا كانت منزلته ومكانته

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » سورة المائدة

والمؤمنون أولياء المؤمنين

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين » سورة المائدة

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء » سورة آل عمران

وذلة المؤمن للمؤمن تأتى من كرامة فى النفس ولا تأتى من هــوان فيها ، فالمؤمنون أولياء بعض وهم أولياء الله ورسوله ثم هم حزب الله يقدمون ما قدمه الله ورسوله ويؤخرون ما أخره الله ورسوله .

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » سورة المائدة .

والمؤمنون هم المخاطبون بمــا أحله الله وما حرمه ليحلوا ما أحل الله وليحرموا ما حرم الله .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » سورة المائدة

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » سورة المائدة

واذا كان المؤمنون هم حملة أمانة التكليف المسئولون عن القيــام بواجبات العبودية ، لذلك نرى القرآن الكريم يضم الجنوح الى غــير سبيل المؤمنين الى مشاقةالرسول ليدل على أنهما متلازمان فقال تعالى :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » سورة النساء

فالمؤمنون كما عرفتهم البشرية فى صدر الاســلام هم تلك النخبة البشرية التى ضمنتهم كتلة متزنة عاقلة رشيدة أخرجت للاسلام الحاكم العالم العادل المشاور والجندى القوى يعف عن المغنم ويتقدم عند المعركة وصاحب الولاية العفيف لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ينصف المظلوم ويشتد على الظالم القريب والبعيد عنده فى الحق سواء .

وكما سبق أن أشرنا بأن مسئولية القيام بواجبات العبــودية فى الارض تختلف من مؤمن الى آخــر كما تختلف باختــلاف العصــور والازمان ، وتبدأ المسئولية من أعلى سلطة فى الدولة الاسلامية متمثلة فى حاكم المسلمين كما يسأل العلماء عن القيام بها ، ويليهم فى ذلك بقية المؤمنين حسبما أوتى كل منهم من قدرة على القيام بها • ونبدأ بالكلام عن مسئولية الحاكم ثم العلماء باعتبارهم أظهر العناصر البشرية التى اوتيت نصيبا من السلطة والعلم وعلى أيديهم يمكن الوفاء بواجبات الخلقة فى خدمة الحق •

المطلب الأول

الحاكم

ان من يتتبع تواريخ الامم وسيرة الشعوب فيما قص علينا التاريخ كرقيب للحياة ، يدرك مدى أهمية القائم على الحكم فى صنع حياة الشعوب فى قوتها من بعد ضعف ، وفى منعتها من بعد ضيم ، وفى سيادتها من بعد هوان ، وفى رفعتها من بعد امتهان ، وفى تقدمها من بعد تخلف ونسيان ، وفى الصعود بها الى حيث تشرف على رؤوس الامم ومسئولية قيادة البشرية الى حيث الامن والطمأنينة والسلام .

وان جاز هذا بالنسبة لكثير من أمم الارض فى تاريخ البشرية الطويل عبر القرون والاجيال فانه كان أظهر فى تاريخ الامم الاسلامية ، لذا كان الوفاء للدولة وللقائم على الحكم خالصا من الزيف مبرءا من العوج والرياء ، وكان الحاكم يحتل مكان القلب والروح من الجماعة الاسلامية فأسلمت له القياد يسوسها فى أمور دينها ودنياها، وانصرف المسلمون الى البناء والتعمير والفتوحات وهم آمنون مطمئنون على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، فأحس الانسان المسلم بأهميته وظهر العمل المبدع الخلاق ، وأخذ الانسان المسلم ينمو ويترعرع فى جو من الحرية يسهر عليها ويدافع عنها رأى عام يقظ من شعب مسلم يتذكر دائما الرسالة العليا التى تحمل عبأها الدولة الاسلامية ومن حاكم مسلم يدرك تمام الادراك مدى ثقل التبعة التى يحملها أمام الله وأمام الناس .

وما أبلغ ما قاله أحد مبعوثى قريش لهم يصور ما رآه من وفاء المسلمين لنبيهم وحبهم له « يا معشر قريش انى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا ، فروا رأيكم » (١) .

---

(١) السير النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٣٢٨ .

واذا كان هذا شأن فريق من الحكام فانه على النقيض من ذلك تماما شأن كثير من قادة الامم وملوكها وحكامها وعلى الاخص ممن ليسوا من أبنائها بل فرضتهم تدابير السياسة وألاعيب الحكم ، فكم من ملوك اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا ، وجعلوا الحياة مسرحا للحكم الجائر المستبد ، وكان طريق الاستبداد والقهر والغلبة هـو الطريق الوحيد يقمعون به كل صيحة من صيحات التعبير عن الظلم ، وكان من نتيجة ذلك أن هانت على الانسان انسانيته ، وفسد نظـام فـكره ، واضطربت عقليته وبطل حسه ، وأصبح المحكومون مجرد أدوات لا يملكون لانفسهم من أمور دينهم ودنياهم شيئا ، وكأنهم قوافل من العبيد مساقة الى حتفها وهلاكها مكبلة بالقيود والاغلال ، وكم خاضت كثير من الشعوب تجارب حزينة رهيبة فى ظل حكم جائر مستبد ، وقد أغنانا الله سبحانه وتعالى بالنظام الاسلامى ، فرغم ما أصاب العالم الاسلامى من محن ورزايا الا أن روح الاسلام كانت وقـاية ووجـاء للحكام من الاسراف فى العنت والاكراه بالنسبة للشعوب المسلمة • ما عدا فترات لا يحسب لها فى عمر الزمن حساب •

هذه عجالة رأيت أن أتقدم بها بين يدى الكلام عن مسئولية الحاكم فى القيام بواجبات العبودية لله فى الارض ، وفى مجال الحديث عن مسئولية الحاكم فى حراسـة الدين وسياسة الدنيا يجب التفرقة بين حالتين :

الحالة الاولى : وغالبا ما تكون فى أيام استقرار قواعد الملة وانتظام مصالح الامة ، حيث تظهر على الناس مخايل الورع والتقوى وسمات الزهد والعفة والقناعة ، ويعرف كل مسلم دوره المقدر له فى هذه الحياة فلا يقصر عنه ولا يجاوزه الى غيره فيتعداه ، فيرضى بحظه ونصيبه ويقف عندما أحله الله ويبتعد عما ليس فيه حظ ونصيب من ماديات الحياة أو معنوياتها ، فحياته كلها خير ان أعطاه الله شكر فكان خيرا له ، وان منعه أو استرد منه صبر فكان خيرا له •

وتلك الصفات هى ما تحققت لاول مرة فى عهد النبوة وعهد الخلافة حيث رأت البشرية مجتمعا عادلا متوازنا فى شـتى نواحى الحيـاة وجوانبها ، وفى مجالى الدين والدنيا ، ففى مجال العبـادات ركب المسلمون فى طريق الوصول الى الله أقصى ما تبلغه الطاقة وأخذوا

بالعزائم فلم يترخصوا فى كل موضع رأى المشرع الحكيم أن يرخص لهم فيه تخفيفا عليهم ورفعا للحرج والمشقة ، وكان شعارهم أن المر فى طاعة الله يحلو للمحبين ، وان الانســـان لو خر ســـاجدا لله الى يوم القيامة لما وفى لله حقا ولا أدى اليه شكر نعمة .

وفى علاقتهم ببعضهم كان الوفاء شعارهم فى معاملاتهم وأقضيتهم ومنقلبهم فى حساسية مرهفة فرضها الدين على أرواحهم ونفوســـهم وقلوبهم ، وأشاعها فى أخلاقهم واجتماعهم يأخذ الغنى بيد الفقـــير والقوى بيد الضعيف والعالم بيد الجاهل فى تكافل اجتماعى رشيد قد خلا تماما من الاثرة والانانية وأشـــاع جـــوا من الايثـــار والمحبـــة والتضحية .

وفى علاقاتهم بغيرهم كان القسط والبر بهم شريعتهم أمرا من عند ربهم لا سبيل الى مخالفته ولا طريق الى مجاوزته ايمانا منهم بأن الله خلق البشر للتعارف والتآلف وليس للتباغض والتناكر والتحاسد .

وكانت علاقتهم بحاكمهم وعـــلاقة حاكمهم بهم قائمـــة على العدل مستندة الى الشورى مؤيدة بالطاعة والنصيحة والاعانة . وفى علاقتهم بدولتهم كانت الشهادة والموت فى سبيلها أحب شىء الى نفوسهم ، وكانت عـــلاقة دولتهم بهم قائمـــة على تدبير كل ما يوفـــر السعـــادة للانسان ، فوضعت بأيديهم ما به تستقيم دنياهم وتصلح أخراهم ، فأعطت العقول حظها من حرية التفكير والالسن نصيبها من حرية القول ومنحت النفوس قسطها من الجرأة والشجاعة ، وغرست فيها طبائع البر والخير ، والرحمة والوفاء .

ولا شك أن هذه الحالة يندر أن تتوافر فى كل وقت من أوقات الامم والشعوب وان ظهرت فانها لا تظهر بتلك الصورة المشار اليها ، بل تظهر وفى بعض نواحيها قصور ، وفى بعض جوانبها تصدع أو ضمور .

وبذلك يكون المجال الوحيد لظهور المجتمعات بهذا التوازن فى أمور الدين والدنيا هو أيام الدعوات وفترات اتصال الارض بالسماء ، حيث يتلقى الناس التربية الجادة المخلصة ، ويرون تطبيق الاصول والاحكام ونقلها الى الواقع العملى . وهنا يكون دور الحاكم فى اقامة واجبات العبودية ، سهلا ميسورا ، قاصرا على التوجيه والارشاد بالموعظة

الحسنة والكلمة الطيبة حيث النفوس المستعدة للقيام بواجبات العبودية وأداء أمانة التكليف دون حاجة الى استعمال القهر لحمل الناس على الوفاء بها ، لانهم أحرص الناس على تقبل ما يأمر به الدين مادام فيه رضا لله والحظوة عند رب العالمين ٠

الحالة الثانية : وفيها يتعاظم دور الحاكم ، وتكبر تبعـــــاته ومسئولياته عندما تبتعد المجتمعات الاسلامية عن ضميرها فى التشريع والعبادات والمعاملات والسنن والتوجيهات والاحكام والاخلاق والعادات ويصبح لكل منها وجهة غير وجهة الاسلام يستسلم الانسان لاهــواء النفس وأشواقها وتطلعاتها ومطامعها ومطامحها ، ويسود المجتمعات جو من الاثرة والانانية، وما تشيعه من بغض وكراهية، ويبتعد الناس عن روح التكافل والتساند والتعاضد ، فيعمل الغنى على حظه ويتنكر لحقوق فرضها الله فى ماله ، ويتوارى الفقير وراء همومه وأحزانه ، ويتعالى القوى بقوته أيا كان مصدرها ماديا أو معنويا ، ويستسلم الضعفاء لتلك الاوضاع وكأنها أقدار مقدرة لا سبيل الى دفعها أو حتى مجرد التنكر لها ، ويستكين العلماء للخوف فلا ينطقون ، ويجهل الجهال فلا يسألون ، وبالجملة يصبح ما فى المجتمعات الاسلامية على غير خلقته وهيئته ، ويفتقد الناس وازع الضـــمير ، فيسيرون الى حيث الاهواء والمطامع والشهوات ٠

لا شك أنه عنـــد ذلك لا بديل عن ســـلطة الحاكم فى ردع المتغلبين وانصاف المغلوبين وحمل الناس على القيام بشعائر الدين وردهم الى حظيرة المؤمنين بما يملكه من قدرات ومكنات وما يتـــوافر لـــديه من امكانيات الزجر والردع ٠

وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

(ان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن) ٠

وقد أورد هذا الحديث الامام بن كثير فى تفسيره لسورة الاسراء وهو يفسر قوله تعالى :

« وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا »

وفى تفسيره للآية أشار للحديث معلقا عليه بقوله ان الله ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمنع القرآن عن ارتكابها رغم ما فيه من الوعيد الاكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع •

وقد أورد الامام بن كثير قول قتادة : ان نبى الله صلى الله عليه وسلم علم أن لا طاقة له بهذا الامر الا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولاقامة دين الله فان السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم •

وقد أشار الامام الماوردى الى ما تستقيم به أمور الدنيا وهى دين متبع وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وأمل فسيح ، وعن الحديث عن القاعدة الثانية وهى السلطان القاهر أشار الى أن برهبته تتألف الاهواء المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية •• وقد أفصح المتنبى بذلك حيث يقول

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذاعفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء : اما عقل زاجر ، أو دين حاجز ، أو سلطان رادع ، أو عجز صاد • فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بداعى الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان السلطان ظل الله فى الارض يأوى اليه كل مظلوم : وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان لله حراسا فى السماء وحراسا فى الارض ، فحراسه فى السماء الملائكة وحراسه فى الارض الذين يقبضون أرزاقهم ويذبون عن الناس •• وقال بعض البلغاء

السلطان فى نفسه امام متبوع وفى سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد فى حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم • ثم لما فى السلطان من حراسة الدين والذب عنه ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد هذه الامور ان لم تنحسم عن الدين بسلطان قوى ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوى الاهواء وتحريف ذوى الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فى وهيه اثر كما أن السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت زعيم الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه وقد قال عبد الله بن المعتز

الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى[1]

واذا تتبعنا ما مضت به سنة الاولين ، وما جرى عليه الواقع فى عهد الخلفاء الراشدين وما حققته سلطة الحكم وسرعة اتخاذ القرارات فى كل مرة تعرضت فيه هيبة الدولة الاسلامية للخطر ، لوجدنا دلالات قوية على مدى ما يمكن أن يقدمه الحاكم للاسلام والمسلمين حفظا للدين وحمايته من كل معتد أثيم يريد النيل منه •

ويكفينا أن نشير الى ثلاث مواقف وقفها الخليفة الاول أبو بكر الصديق ، ومن بعده الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، ثم جاء من بعدهما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ليضيف أبعادا جديدة الى أهمية القائم على الحكم فى صنع حياة الشعوب وفى قوتها من بعد ضعف ، وفى عزتها من بعد هوان •

فالموقف الاول وقفه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى وقت عظمت فيه مصيبة المسلمين بموت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان له الاثر الحاسم فى حفظ هيبة الدولة الاسلامية وحمايتها من الأعداء المتربصين بها فى الداخل والخارج •

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى •

فقد قال أبو بكر رضى الله عنه لاسامة بن زيد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجهه قبل وفاته على رأس جيش الى الشام . أنفذ لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : كيف ترسل هذا الجيش والعرب قد اضطربت عليك ؟ فقال : لو لعبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة ما رددت جيشا أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال له عمر وغيره : اذا منعك العرب الزكاة فاصبر عليهم : فقال : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . والله لاقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة قيل ومع من تقاتلهم ، قال : وحدى ، حتى تنفرد سالفتى (١) .

والموقف الثانى هو موقف الخليفة الرابع على بن أبى طالب مع الخوارج فقد قال أحدهم وهو يخطب على منبره لا حكم الا لله فقال على رضى الله عنه كلمة حق أريد بها باطل لكم علينا ثلاث لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ولا نبدؤكم بقتال ، ولا نمنعكم الفىء مادامت أيديكم معنا . ولما اعتزلت طائفة من الخوارج عليا عليه السلام بالنهروان ولى عليهم عاملا أقاموا على طاعته زمانا وهو لهم موادع الى أن قتلوه فأنفذ اليهم أن سلموا الى قاتله فأبوا وقالوا كلنا قتله ، قال فاستسلموا الى أقتل منكم وسار اليهم فقتل أكثرهم .

أما عن الموقف الثالث فهو الموقف الذى وقفه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى اقرار الحق وازالة الظلم والرغبة الملحة فى العودة الى ماضى الاسلام بعد فترة من حكم الدولة الاموية أطلت فيها العصبية برأسها وعادت الامور كما كانت ولن كانت بعيدة عن روح الاسلام وأحكامه ، فكان لشجاعته الفذة فى مجال الحكم ما كان يمكن لو طال به العمر أن يعيد للاسلام اشراقه وعظمته ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شىء أجلا .

لقد قام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بردع المتغلبين وانصاف المغلوبين بعد أن انتشر الامر فى عهد بنى أمية فقام فى شجاعة نادرة برد مظالم بنى أمية على أهلها حتى قيل له وقد تشدد عليهم فيها

---

(١) العواصم من القواصم للقاضى أبى بكر بن العربى ص ٤٥ — ٤٧ .

وأغلظ « انا نخاف عليك من ردها العواقب ، فقال كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته » [1] .

ولما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة كلموه فى ذلك فقال : لن يتسع مالى لكم ، وأما هذا المال فانما حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد [2] .

ولم يقتصر الامر على استعمال سلطة الحكم فى رد ما اغتصبوه أو منع ما كانوا يتقاضونه من مال دون حق فيه ، بل منعهم ما كانوا يتطلعون اليه من ولايات ومناصب فى شجاعة عملاقة قوية . فقد كان جالسا فى بيته وعنده أشراف بنى أمية فقال أتحبون أن أولى كل رجل منكم جندا ؟ فقال رجل منهم : لم تعرض علينا ما لا تفعله قال : ترون بساطى هذا ؟ انى لاعلم أنه يصير الى بلى وفناء وانى أكره أن تدنسوه بأرجلكم ، فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم ؟ هيهات لكم هيهات فقالوا له : لم ؟ أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الامر الا سواء ، الا رجلا من المسلمين حبسه عنى طول شقته [3] .

واذا كانت القوة فى مجال الحكم قد أتت أكلها فى تلك القضايا التى أشرنا اليها رغم وقوع حوادثها فى فترة الخلافة والاسلام لازال يسيطر على أرواح كثير من المسلمين ويتحكم فى تصرفاتهم فانه مما لاشك فيه أن الحاجة الى القوة تكون أكثر الحاحا عندما ينفلت الناس من حظيرة الدين ، وتنتقص عرى الاسلام عروة عروة ، بحيث لا ينفع معهم الا أقوى الايدى وأنفذ الاوامر ولن يتوافر ذلك الا للحاكم . أما الاعتماد على سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير والتنفير من الشر ، لحمل الناس على الاستجابة لاحكام الاسلام فقلما تؤتى ثمارها مادامت الضمائر قد تعفنت والارواح تأسنت واختلت القيم والمقاييس وتوارت المثل العليا من حياة البشر ، وسرى الوهن والضعف الى النفوس فاستحالت جامدة لا حراك فيها ولا روح .

---

(١) الاحكام السلطانية ص ٧٨ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٨ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٦ .

المطلب الثانى

مسئولية العلماء

ان العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب ، لذلك مجد الاسلام العلم وأثنى على العلماء فقال تعالى :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » • سورة الزمر آية ٩

فمنع سبحانه وتعالى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم •

« وما يعقلها الا العالمون » • سورة العنكبوت آية ٤٣

فنفى سبحانه وتعالى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يدرك نهيا ، أو يفهم زجرا أو يتقبل وعظا •

والشواهد فى فضيلة العلم ومنزلة العلماء فى الكتاب والسنة وقول السلف رضى الله عنهم أكثر من الحصر أو الاستقصاء •

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط : آل عمران آية ١٨ •

فانظر كيف بدأ الله سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم ، وناهيك بذلك شرفا وفضلا للعلماء •

وقال تعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » المجادلة آية ١١ •

وخشية الله ومزايلة سخطه لا تكون الا من العلماء .

« انما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر آية ٣٨ .

وقال تعالى؟ :

« ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » سورة النساء آية ٨٣ .

وفى تفسير هذه الاية يقدم الامام الغزالى رد حكمه فى الوقائع الى استنباطهم ، وألحق رتبتهم برتبة الانبياء فى كشف حكم الله (١) .

وقيل فى قوله تعالى « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواءتكم » يعنى العلم « وريشا » يعنى اليقين « ولباس التقوى » يعنى الحياء (٢) .

وقال تعالى :

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » العنكبوت آية ٤٩

وعن فضل العلم والعلماء قال على بن أبى طالب رضى الله عنه من حديث طويل له « القلوب أوعية خيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع لكل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على الانفاق والمال ينقصه الانفاق والعلم دين يدان به ، تكتسب به الطاعة فى حياته وجميل الا حدوثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ومنفعة المال تزول بزواله ، مات خزان الاموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر . ثم تنفس الصعداء ، وقال : هاه : ان هاهنا علما جما لو وجدت له حملة بل أجد طالبا غير مأمون يستعمل آلة الدين فى طلب الدنيا ، ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه أو منقادا لاهل الحق ولكن يتزرع الشك فى قلبه بأول عارض

---

(١) أحياء علوم الدين جـ ١ ص ٩ .
(٢) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٩ .

من شبهة ، لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك أو منهوما باللذات سلس القياد فى طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الاموال والادخار منقادا لهواه ، أقرب شبها بهم الانعام السائمة ، اللهم هكذا يموت العلم اذا مات حاملوه ، ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجـة ، اما ظاهر مكشوف واما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيانه ، وكم وأين أولئك هم الاقلون عددا ، الاعظمون قدرا ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججـه حتى يودعـوها من وراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى ، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، ثم بكى وقال : واشوقاه الى رؤيتهم (١) •

وما أجمل ما قيل نظما اشادة بالعلم وشرف أهله :

ما الفخر الا لاهل العـلم انهم
على الهـدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسـنه
والجاهلون لاهل العلم أعـداء
ففز بعلم تعش حيـا به أبدا
الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الاسود : ليس شىء أعز من العلم ، الملوك حـكام على الناس والعلماء حكام على الملوك •

وقال سالم بن أبى الجعد : اشـترانى مولاى بثـلاثمـائة درهـم وأعتقنى ، فقلت بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت العلم فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائرا فلم آذن له • (٢) •

واذا كان للعلم كل تلك المنزلة والمكانة واذا كان للعلماء هذا القدر من الرفعة فى نظر الاسلام ، فلا شك فى ثقل التبعة وجسامة المسئولية

---

(١) احياء علوم الدين ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢
(٢) احياء علوم الدين ج ١ ص ١٤

التى يحملها العلماء أمام الله وأمام الناس فلا تقوم لهم حجة ولا يقبل منهم عذر ان هم قصروا فى أداء رسالة العلم أو تقاعســوا عن نصرة الحق ، والانتصار لشريعته .

من أجل ذلك أخذ الله العهد على العلماء أن يبينوا العلم للناس ولا يكتمونه فقال تعالى :

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه» سورة آل عمران آية ١٨٧ .

ويستنزل القرآن اللعنة على من كتم عن الناس علما فقال تعالى :

« ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » سورة البقرة آية ١٥٩ .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه « ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا (١) .

فالعلماء هم أركان الملة ودعائم الشريعة الناصحون لعباد الله ، الهادون من استرشد الى الله ، فهم ورثة الانبياء والامناء على مواريث النبوة التابعة الى السماء .

لذلك فان افتقاد العلم نذير بخراب أمر الامة وتأخرها كما أشار الى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم .

فعن أنس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ان من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا (٢) » .

وتبيان العلم هو المسئولية الاولى التى ألقاها الله على العلماء ، يبينون أحكامه ، ويوضحون حلاله من حرامه ، ويدفعون عن دين الله

---

(١) ادب الدنيا والدين ص ٦٣ .
(٢) عمدة القارىء ج ٢ ص ٨٢ .

أصحاب البدع والمنكرات ، وأهل الضلال والعناد ، ويتصدون لكل من أدخل الاسلام أو يحاول أن يدخل فيه ما ليس منه •

والمسئولية الثانية التى ألقاها الله على عاتق العلماء القيـــام بالعدل والقسط بين خلق الله دون خوف من وعيد أو خشية من تهديد •

لذلك نرى الله تبارك وتعالى كثيرا ما يخصهم بالفضل ويثنى عليهم كما يثنى على نفسه وهذه خصوصية عظيمة للعلماء أنزل الله فيها قوله تعـــالى :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » آل عمران (١٨) •

وهذا يفرض على العلماء مسئولية جسيمة تحتم عليهم التحرر من كل ما يخشى عليه من ماديات الحياة ومعنوياتها بل التحرر من الخوف على الحياة نفسها من أن تزهق وهم على الطريق يؤدون واجبات القسط ومقتضيات العدل •

وثالث ما ينبغى أن يرعاه العلماء ورثة الانبياء ألا يطلبوا الدنيـــا بالدين ، وألا يكون الدين وسيلة الى ماديات الحياة ومعنوياتها مهما كان بريقها ، ومهما كانت جاذبيتها •

وقد حذر الخليفة الثالث عمر بن الخطاب رضى الله عنه من صنف من الناس يشترون بآيات الله ثمنا قليلا فقال من بين ما قال فى خطبة طويلة له :

« وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثيرا القراء قليل الفقهاء ، كثير الامل ، يعمل فيه أقوام للاخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا كل من أدرك ذلك منـــكم فليتق الله ربه وليصبر » (١) •

وسئل ابن المبارك من الناس فقال العلماء ، قيل فمن الملوك قال : الزهاد ، قيل فمن السفلة قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين (٢) •

---

(١) كتاب الخراج لابى يوسف ص ١١٨ .
(٢) أحياء علوم الدين للغزالى ج ١ ص ١٣ .

وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم « لا تزال هذه الامة بخير تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ، ولم يترك صلحاؤها فجارها ولم يمار أخيارها أشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملا قلوبهم رعبا • (١)

ورابع ما يفرضه الاسلام على العلماء هو أن يحقق العلماء باعتبارهم أقرب الناس الى مصادر النور القدوة الحسنة لغيرهم من سائر الناس بحيث تسـيطر على كل تصرفاتهم المتمثلة فى سلوكهم مخـايل الورع والتقوى ومظاهر العزة والكرامة وليحـذر العلماء التبعيـة والانقياد والاستسلام فيما يجانب الدين ويضاد الحق فربما زلت أقدام العلماء موافقة لرأى أو متابعة لهوى وغرض رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الاثار •

وصدق من قال : اذا زل العالم زل بزلته عالم •

وتتحقق القدوة الحسنة فى العالم اذا عمل بما يعلم فان المرء لا يكون عالما حتى يعمل بما يعلم •

وقد ورد فى علماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة لان قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل الى الجاه والمنزلة عند أهلها ونورد بعض ما ورد فيهم عظة وعبرة •

وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتيه (٢) •

وقال عمر رضى الله عنه : ان أخوف ما أخاف على هذه الامة المنافق

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى ص ٦٦ — ٦٧ •
(٢) أحياء علوم الدين ج ١ ص ١٠٠ •

العليم ، قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل • (١)

وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء • (٢)

وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فأيقظوه [٣] •

وفى هذا يقول الامام الغزالى ان هذه الاخبار والاثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل وأن الفائزين المقربين هم علماء الاخرة ولهم علامات نوجز منها بعض ما ورده الامام الغزالى • (٤)

١ ــ أن لا يطلب الدنيا بعلمه فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الاخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت احداهما اسخطت الاخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت احداهما خفت الاخرى ، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الاخر • فان من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها ، فهو فاسد العقل ، فان المشاهدة والتجربة ترشد الى ذلك ، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الاخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الايمان فكيف يكون من العلماء من لا ايمان له ؟ ومن لا يعلم مضادة الدنيا للاخرة وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ، فهو جاهل بشرائع الانبياء كلهم ، فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الاخرة على

---

(١) ، (٢) ، (٣) احياء علوم الدين ج ١ ص ٩٩ ــ ١٠٠

(٤) يرجع الى احياء علوم الدين للغزالى ج ١ باب العلم .

الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت شقوته ، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته ؟

وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الاخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل فى علماء الدنيا « واذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا آية » ١٨٧ سورة آل عمران وقال فى علماء الآخرة « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم » .

٢ — ولكى تتحقق القدوة الحسنة فى العالم يجب ألا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشىء ما لم يكن هو أول عامل به قال الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) سورة البقرة آية ٤٤ وقال تعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) سورة الصف آية ٣ وقال تعالى : (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) . سورة هود آية ٨٨ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت من أنتم فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتى عالم فاجر وعابد جاهل وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخيار خيار العلماء » .

وقال الشعبى : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار وانما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون لهم : انا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهى عن الشر ونفعله . وأنشد قائل :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما
اذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا
فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها
وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال ابن السماك رحمه الله : كم من مذكر بالله ناس لله ، وكم من مخوف بالله جرىء على الله ، وكم من مقرب الى الله بعيد من الله ، وكم من داع الى الله فار من الله ، وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله .

٣ — ومما يجب أن يتدبره العالم ويعيه أن يكون مستغنيا عن أصحاب الجاه والسلطان لان الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدى السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم ، فالداخل عليهم اما أن يلتفت الى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ، أو يسكت عن الانكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف فى كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح ، أو أن يطمع فى أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت .

وقال الحسن : كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم فى الاسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن المبارك عنى به سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، قال : وكان لا يغشى السلاطين ، وينفر عنهم ، فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الاسلام فلو أتيتهم فقال : يابنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم ، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ، قالوا ياأبانا اذن نهلك هزالا ، قال : يابنى لان أموت مؤمنا مهزولا أحب الى من أموت منافقا سمينا .

٤ — ألا يكون العالم مسارعا الى الفتيا بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد الى الخلاص سبيلا ، فان سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو اجماع أو قياس جلى أفتى ، وان سئل عما يشك فيه قال : لا أدرى ، وان سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره ان كان فى غيره غنية ، هذا هو الحزم لان تقلد خطر الاجتهاد عظيم . وجماع ذلك أن يحترز من الافتاء بغير علم ، فيضل ويضل ويزل بزلته خلق كثير ومعنى ذلك ألا يجعل العلم تابعا للهوى والغرض مضادا للحق .

ولا شك أنه اذا وفى العلماء بما ألقاه عليهم الاسلام من مسئوليات وتبعات ، فقد قاموا بواجبات العبودية لله فى الارض ، اقامة للدين ، وحراسة له من أصحاب البدع والمنكرات ، وردا الى حظيرته أصحاب الاهواء والاغراض والشهوات بتخليصهم من دواعيها ، وتعريفهم بأمور دينهم ودنياهم .

الباب الثاني

أظهر واجبات العبودية

استعرضنا فى الباب الاول بفصوله حقائق عن الاسلام ، كما استعرضنا مسئولية القيام بواجبات العبودية وخلصنا الى أن المسئول عنها هم مجموع المؤمنين على اختلاف أقدارهم ومنازلهم ، مستشهدين فى ذلك بمواقع تلك المسئوليات والتبعات من كتاب الله وسنة رسوله .

وفى هذا الباب نستعرض فى فصول متابعة بعض أظهر واجبات العبودية التى تفرض الوفاء بها واليقظة الدائمة للحفاظ عليها من أجل مستقبل مشرق تتحرق البشرية شوقا اليه بعد أن عاشت وتعيش أياما حائرة تائهة فى بيداء المهالك والضلالات .

ولا شك أن واجبات العبودية فضلا عن أنها اعتراف بفضل الله على عباده ومننه التى لايستطيع بشر لها عدا أو احصاء ، القيام بها من ناحية أخرى هو الثمن المتواضع الذى يدفعه الانسان فى دنيا أمدها محدود وخيرها وشرها مقدور عليه من أجل حياة لا تقاس بملايين السنين لانها الخلود بجوار من كان بيده منح الوجود للخلائق أجمعين .

الفصل الأول

تحديد قيمة الانسان

من التحديدات الفذة التى وضعها الاسلام وتواضع عليها أبناء الاسلام فترة ليست بالقصيرة هى تحديد قيمة الانسان • وفى مجال تحديد تلك القيمة طرح الاسلام جانبا كل امتياز مصدره القيم المادية والمعنوية التى تواضع عليها البشر من حسب ونسب وقدرة مادية ومركز ومكانة وأمثالها وأشـــباهها ونظائرها ، وجعل أساس التفاضـــل بين البشر فى الايمان المستكن فى الضمير ، والعمل الصالح البارز فى الحياة •

ولقد تكررت الدعوة فى القرآن على لسان النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء الواقع العملى بحشد من الوقائع التى حفل بها واقع المسلمين تركز على هـــذا المعيار وتؤكده وتثبت أركانه وتبين أنه المعيار الراجح فى موازين السماء وفى دنيا الناس وهو أيضا الميزان الراجح عندما يلتقى الخلائق أمام الله ليسألهم عما قدموه فى دنياهم ولا يفوتنا أن نشير الى بعض ما ورد فى كتاب الله تبيانا لتحديد قيمة الانسان

« عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى •• » سورة عبس •

« فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون • ويا قوم لا أسألكم عليه مالا آن أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون • ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون • ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول الذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين » سورة هود من ٢٧ ــ ٣١

« قالوا أنؤمن لك واتبعــك الارذلون • قال وما علمى بمــا كانوا يعملون • ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون ، وما أنــا بطــارد المؤمنين » سورة الشعراء من ١١١ ـــ١١٤

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » سورة الكهف آية ٢٨

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين • وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين • واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم » سورة الانعام من ٥٢ ـــ٥٤

كل هذه الايات وأمثالها كثير تدعو الى تقريب المؤمنين الصادقين باعتبارهم الركيزة القوية التى يعتمد عليها الاسلام فى اقامة أحكامه وحراستها ونقل أحكامها وتبليغها وحمل الناس عليها •

وهكذا كان ميزان التفاضل هو التقوى والعمل الصالح ، وهكذا كان أساس التعارف والالتقاء والصحبة والتعامل ، لذلك كان وصف الله تبارك وتعالى لهم هو قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم » سورة الفتح آية ٢٩ وقوله تعالى فيــهم « أذلــة على المؤمنــين أعزة على الكافرين » • سورة المائدة أية ٥٤

ولكن ما آن ابتعد المسلمون عن حظيرة الدين والتمسوا الشرف ممن ليس من منهلهم ومشربهم حتى طمست معالم هذا الاصل وصحب ذلك هبوط مردى فى القيم والاخلاق واختلال فى الموازين بحيث أصبح سالف الموروثات وسابق العادات هى مركز التجمع وأساس التعارف بين البشر حتى لو تنافرت مع الدين وتنكرت لاحكامه وأخلاقه فأصبحت المصالح المادية الجامحة الغلابة التى لا ترعى حقا ولا تراعى حرية هى الرباط القوى الذى يربط بين الاحاد المتفرقة أحيانا ، كما غدت الاحساب والانساب والقرابة والمعرفة وليست أعمال الناس ومعارفهم هى مصدر قوة الجذب التى تلتقى عليها مجموعات من البشر مهما كان بعدها أو قربها من مصالح الاسلام ومصلحة الجماعة الاسلامية وأحيانا أخرى قد

تكون الرغائب والشهوات غير الأخلاقية هى ملتقى طوائف أخرى من البشر يتجمعون من أجلها ويتفرقون عند افتقادها ، أما الميزان الراجح الذى وضعه الحق تبارك وتعالى ليكون أساس التفاضل بين البشر وأما الاخوة العاقلة الرشيدة المشدودة بروح الاخلاص المؤزرة بمنطق العقائد فقد توارت فى الافق البعيد بحيث لم يبق منها الا اسم وكلمات جوفاء تلوكها الالسنة أحيانا وهى أبعد ما يكون عن واقعهم وأغرب ما يتصور فى تصرفاتهم ومعاملاتهم والمسلمون بسبب ذلك فى ظلمة حالكة حيارى مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، يتقلبون فى حياتهم على غير منهج مرسوم قد هانوا على أنفسهم كما هانوا على غيرهم وتلك طبيعة الكون وسنة الحياة وارادة الله فى خلقه .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » سورة الرعد آية ١١ .

وليست التقوى كمعيار لتحديد قيمة الانسان المسلم مجرد شعائر يؤديها الانسان المسلم من صلاة وصيام وزكاة وحج الى غير ذلك من عقائد وعبادات وهى الجانب الدينى من دين الاسلام ، بل تنصرف التقوى والاعمال الصالحة الى كبريات الاعمال الاجتماعية التى لا صلاح لامة من الامم ولا شعب من الشعوب بدونها ، وكبريات الامور الاجتماعية تجد أساسها المكين فى فكرة الواجب والالتزام التى تتميز بها الشريعة الاسلامية فالانسان فى نظر الشريعة الاسلامية لا ينظر اليه الا على أنه ملزم بأداء مجموعة من الواجبات وفق مجموعة من التبعات والمسئوليات فى علاقته بنفسه وبغيره ، وفى حياته بالمجتمع الذى ينتمى اليه وبالانسانية التى ينتسب لها . وعلى ذلك فالانسان التقى هو الانسان « الانسان » الذى يعظم شعائر الله فلا يفرط فيها ، ويعظم حرمات الله فلا يقربها ، والانسان التقى الذى ينفق المال على شدة تعلقه به على ذوى القربى واليتامى والمساكين ويغيث الملهوف ، ويحمل الكل ، والانسان التقى هو الذى يصل الرحم ويكسب المعدوم ويواسى المظلوم ويعين على نوائب الدهر ونوازل الايام ، والانسان التقى هو الذى يوفى بالعهد ، وينجز الوعد يفشى السلام ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويخلص فى عمله ويراقب الله فى كل ما يعمل ، ويساهم مع سائر الجماعة فى كل أعمال البر والخير واصلاح حال الجماعة وايجاد روح التضامن والتعاون وتحقيق معانى الاخوة

والتعاطف وايجاد روح التضامن والتعاون ، وبالجملة فان عمل الانسان التقى هو الدين يجعل حياة المجتمع الاسلامى مؤسسة على القواعد الاخلاقية وموجهة الى تحقيق غايات الفضيلة .

وعلى هدى ما سبقت الاشارة فانه من أظهر واجبات العبودية لله فى الارض تحديد قيمة الانسان على أساس المعيار الذى وضعه الاسلام « وهو التقوى والعمل الصالح » باعتباره المعيار الراجح فى موازين السماء وعلى أساسه وعلى مقدار اعماله يكون نصيب الامة الاسلامية من الرفعة والكمال ، ويكون حظها من التمكين فى الارض ويكون نصيبها من القيادة والامامة بالنسبة لامم الارض وشعوبها .

ويترتب على هذا التحديد واعادة بعث هذا المعيار من جديد نتائج على درجة كبيرة من الاهمية وجماعها الالتزام بتقديم الاتقياء الاصفياء على مختلف الولايات فى الدولة أو الدول الاسلامية مهما كانت أوضاعهم الاجتماعية مادامو قد استوفوا شروطها طبقا لظروف شغل كل ولاية وما يشترط فى صاحبها وشاغلها من مواصفات ، وابعاد غيرهم وتأخيرهم عن مسئولية قيادة المسلمين مهما كان حظهم ونصيبهم من ماديات الحياة ومعنوياتها من مال وحسب وقرابة ونسب ، ومودة ومعرفة ، وبذلك تكون الاعمال المرتكزة على حقائقها فى القلوب ، هى أساس الاختيار ، ومرجع القيام بالمسئوليات والواجبات والتبعات بالنسبة لمختلف أمور المسلمين الدينية والدنيوية .

لذا نرى النبى صلى الله عليه وسلم يحذر من عاقبة اسناد الولايات الى غير أهلها ويربط ذلك بخراب الامة وعدم استقامة أمورها .

فعن أبى هريرة قال : بينما النبى عليه السلام فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال : وقال بعضهم بل لم يسمع ، حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة ، قال ها أنا يارسول الله . قال : فاذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة . قال كيف اضاعتها . قال اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة [1] .

---

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٢٣ كتاب الشعب ٣٩ .

والمقصـــود بالســـاعة هو خراب أمر الامة بضياع حقـــوق النـــاس وحرياتهم •

ولا شك أنه اذا روعى تحديد قيمة الانسان على أساس التقوى والاعمال الصالحة فانه مما لا شك فيه ، أن ذلك سيساعد على بعث الشخصية الاسلامية باعتبارها شخصية متميزة عن غيرها من شخصيات غير اسلامية ، بما يكفل لتلك الشخصية أن تأخذ طريقها على الارض فى ثبات ويقين مستلهمة أحـــكام الدين فيما يدعـــو اليه من أمور الدنيا والدين وبذلك سيحظى انسان الاسلام بالتبجيل والاحترام أينما حل وأينما وجد وفى أى وقت وأى زمان • وعند ذلك يمكن الحكم على الاسلام بأبنائه المسلمين الصادقين ، ويظهر على مسرح الحياة من جديد انسان الاسلام بأوصافه التى طلبها وربط وجوده بنمائها وازدهارها ، فيكون منه الحاكم العادل العالم المشاور ، والقائد الملهم ، والجندى القوى يتقدم عند المعركة ويعف عند المغنم ، وصاحب الوظيفة العفيف لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنـــة ، ينصف المظلوم ويشتد على الظالم ، القريب والبعيد والامير والصعلوك عنده فى الحق سواء ، وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول :

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » سورة البقرة آية ١٣٨

واذا كانت النتيجة الاولى لتحديد قيمة الانسان على أساس التقوى والعمل الصالح من وجهة نظرنا هى تقديم هذا الصنف من المسلمين لقيادة المسلمين فى السلم والحرب على السواء فان النتيجة الثانية التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالنتيجة الاولى هى كيفية معاملة الاشرار من أهل المعاصى وعن كيفية معاملتهم يقول ابن عطاء الله السكندرى •

« ومما تمادى عليه أهل هذا الزمان ، مباسطتهم ومؤانستهم للعاصين واحترامهم ومقابلتهم بالبشاشة والاجلال والثناء عليهم فى المجالس ومخاطبتهم بألقاب الشرف ومصاحبتهم طمعا فيما عندهم أو خوفا من بطشهم مع أن الله تعالى قد نهانا عن هذه الافعال فقال تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان

وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » سورة المجادلة آية ٢٢ لان معاملة العاصى على هذا النحو يجعله يتمادى فى اجرامه ويستمر فى عصيانه ويكثر من الوقوع فى حدود الله وقد أمرنا الله بمقاطعتهم وعدم الركون اليهم فقال تعالى « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » سورة هود آية ١١٣

ولو أن الناس عبسوا فى وجوه العصاة وعاملوهم بالفتور والاحتقار وهجرا مجالسهم وقدموا أهل الدين والورع حرصوا على صحبة الصالحين الاقتداء بهم ومحاكاتهم واحترموهم لوجه الله وفضلوهم على أهل الدنيا وعرفوا مكانتهم ، لو فعلوا ذلك لكان هذا العمل زاجرا لهم عن المعصية ورادعا لهم عن الوقوع فيها » .

ولا شك أن واجبات العبودية لله فى الارض تفرض محاربة كل منكر ظهر فعله ، أو معروف ظهر تركه حفظا للدين وحرصا عليه من أهل المعاصى المارقين المستهزئين « ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا » .

ولا شك أن هجر أهل العاصين على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم وأهوائهم يعتبر عملية « عزل » لهم عن جماعة المسلمين كما يتضمن القضاء على المسلمين المخلصين فى حظيرة الدين على هيئة كتلة اسلامية متوازنة يتعين تقديمها لحماية الدين فى وقت السلم وعندما يتطلب الامر الجهاد وقد أمر الله تبارك وتعالى بقية المسلمين بصفة عامة بالحرص على صحبة الاخيار الاطهار ومجالسة أهل الورع والمعرفة فقال تعالى فى كتابه العزيز .

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » سورة الكهف ٢٨

وعملية عزل أهل المعاصى المارقين من الدين وابعادهم عن الولاية على أعمال المسلمين المختلفة ليس هدفا فى حد ذاته ، بل القصد من عملية العزل هو اشعارهم بأهمية القرب والبعد من العمل بأحكام الدين

وتوجيه النصح لهم وارشادهم الى ما ينبغى عليهم تجاه خالقهم وبارئهم وتجاه مجتمعهم وعاقبة ذلك فى الدنيا والاخرة مع مراعاة عدم التشهير بهم أو الكيد لهم أو فضح ما استتر من سيئات أعمالهم •

وهذا الدور يمكن أن يؤدى على مستوى الفرد وعلى مستوى الاسرة وعلى مستوى المجتمع بقطاعاته ككل •

فعلى مستوى الفرد يجب عليه أن يختار من الاصدقاء من يكون عونا له على الدين ويتجنب منهم اخوان السوء وأهل الريب أعداء الدين المارقين منه ، المتنكرين لشعائره وأحكامه الخارجين على حدوده وأخلاقه ، لأن عدو الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره •

وقال بعض الحكماء : اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأى والادب فانه ردء لك عند حاجتك عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك •

وقيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينـــه
فكل قـــرين بالمقـــارن يقتـــدى
اذا كنت فى قوم فصـــاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

كمال قيـــل :

فان خـــيرت بين النـــاس فالصـــق
بأهـــل العقـــل منـــهم والحيـــاء
فـــان العقـــل ليس لـــه اذا مـــا
تفاضلت الفضـــائل من كفـــاءة

ولا شك أنه اذا راعى كل فرد مسلم اعتبار الدين والعقل فى تحديد علاقته بغيره ، فان ذلك سيؤدى الى حصر العناصر البشرية غير الاخلاقية وعزلها عن جماعة المسلمين واشعارهم بأهمية اصطفاء الاخلاق من بين من لا يتهمـــون فى دينهم ، وهـــذا أكبر دافع لهم على تلمس

الطريق الى فضائل الدين ومدى أهميـــة الوقوف عند ما حده المشرع الحكيم وما فيه من عز الدنيا وعز الاخرة •

وعلى مستوى الاسرة فان عزل العناصر البعيدة عن حظيرة الدين الاخذة بكل مرتخص من مظاهـــر المدنية الزائفة من الامـــور البـــالغة الاهمية فى اقامة واجبات العبودية لله فى الارض وهو من بين واجبات الرعاية التى يملكها رب الاسرة المسئول عن صلاحها ابتداء من دور النشأة والتكوين وهى على طريق السعة والامتداد • فاذا رأى الوالد ولده قد تنكب السبيل وضل السعى فى الطريق فعصى ربه ، وأعرض عن ذكره وطاعته وتكاسل فى خدمته ، سارع الى تأديبه بالشرع وقابله بالعبوس والكآبة ، وبين له أثر المعاصى وعاقبتها ، وشرح له ثمرات الطاعات وفوائدها فى الدنيا والاخرة حتى يجد له رادعا من ضميره فيدرك الحقيقة بنفسه فيكف عن المعصية كارها لها ، ويقبل على الطاعة راضيا بها ، وليحذر الوالد مقاطعـــة ولده أو اخراجه من بيته ، قال تعالى :

« فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » ســـورة النساء آية ٦٣

ولاشك أن طريق النصيحة المؤزر بمنطق الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير أفضل السبل للاصلاح على مستوى الاسرة •

وعلى مستوى الدولة فان تقديم الامناء القادرين وتقليد النصحاء على الولايات المختلفة ، وابعاد من لا يوثق فى دينه ، وتأخير من لا يرجى خيره أمانة جسيمة فى عنق من بيده عملية الاختيار وتعتبر من أقدس واجبات العبودية لله فى الارض ، لارتباط ذلك ارتباطا وثيقا بفترات القوة التى لزمت الدولة الاسلامية وكانت الاسباب المباشرة للتمكين لها وتبوئها مكان الامامة والصدارة بالنسبة لامم الارض وشعوبها كما كان تقديم من لا يوثق فى دينهم من الاسباب المباشرة أيضا لضعف الدولة الاسلامية وتوقفها عن أداء رسالتها التى أرادها الله لها ووكلها اليها ، ثم تراجعها شأنها شأن غيرها الى سالف العادات وسابق الموروثات المتنافية والمتنافرة مع الدين ثم تبعيتها بعد ذلك الى غيرها من دول الارض توجهها حيث شاءت وتسوقها الى حيث تريد •

واذ نختتم بعد هذا فصلا كتبناه عن تحديد قيمة الانسان نعيد التأكيد مرة أخرى بأن هذا التحديد اذا تم على أساس قيمة العبد عند الله وفقا لمعايير السماء ، فان هذا سيكفل حتما بعث الشخصية الاسلامية من جديد ولن يلبث العالم أن يرى كما سبق له أن رأى انسان الاسلام أطوع الناس انقيادا للحق وأشدهم استمساكا بالفضائل والاخلاق ، وأكثرهم ادراكا لامانة هداية البشرية واستشعارا لمعنى الانسانية وأسرعهم قياما بواجبات العبودية وهكذا يصبح المسلم الحق النور الوضاء فى عالم يسوده الظلام الدامس ، ويصبح رمزا للعزة والكرامة فى عالم يسيطر عليه الذلة والمهانة وعندئذ سيتحول تيار العالم من الشر الى الخير ، ومن الشقاء الى السعادة ومن الاثرة الى الايثار ومن التناكر الى التعارف والتآلف ، وهذه تعتبر ممهدات للغاية العظمى التى تتحرق البشرية شوقا اليها وهى أن ترى مشرق الاسلام من جديد يأخذ بيديها الى حيث الامن والطمأنينة والسلام .

الفصل الثانى

الاعتبار بسنن الله الفاعلة فى الكون

ان الاحكام التى أوردتها الشريعة الاسلامية ليأخذ الناس أنفسهم بها حفظا للدين والنفس والعقل والمال والعرض انما أنزلت بقصد اسعاد الناس فى دنياهم وفلاحهم فى أخراهم ، وعلى هذا كان لكل عمل دنيوى وجه أخروى ، بحيث يترتب على كل عمل له أثر فى الدنيا أثر فى الاخرة هو المثوبة أو العقوبة الاخروية • ويظهر ذلك واضحا من تتبع أحكام الشريعة حيث تجد أن كل حكم منها يترتب على مخالفته جزاءان ، جزاء دنيوى ، وجزاء أخروى •

ولبيان ذلك نبين حكم الاسلام فى قطاع الطرق حيث الجزاء الدنيوى هو القتل والقطع والصلب والنفى ، والعذاب العظيم عقوبة أخروية وفى ذلك قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الاخرة عذاب عظيم » سورة المائدة آية ٣٣

واشاعة الفاحشة ، ورمى المحصنات له عقوبة فى الدنيا ، وله عقوبة فى الآخرة ، وفى هذا قوله جل شأنه :

« ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والاخرة » سورة النور آية ١٩

ويقول سبحانه وتعالى :

« ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم

بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحــق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » سورة النور آية ٢٣

والقتل العمد له عقوبتان : القصاص فى الدنيا والعذاب فى الاخرة وفى ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنــوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » سورة البقرة آية ١٧٨ وقوله : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » سورة النساء آية ٩٣

وهكذا نجد الاحكام التى جاءت بها الشريعة الاسلامية لا يكاد يخلو حكم منها من وجهين وجه دنيوى وآخر أخروى •

وهذا مبنى على أن أحكام الشريعة الاسلامية لم تشرع للدنيا فقط أو للأخرة وحدها وانما شرعت للاثنين معا ، وهذا هو منطق الشريعة حيث تعتبر الدنيا معبرة للاخرة وجسر موصل اليها ، وأن جزاء الانسان فى الآخرة مرهون بنتائج أعماله فى الاولى فهما صنوان لا يفترقان •

وهكذا تمزج الشريعة بين الدين والدنيا ، وكل ما يقدمه الانسان فى الدنيا فهو مجزى عنه فى الاخرة وهذا ما تعلمه المسلمون من أصول دينهم وجرى عليه واقعهم كلما أدركوا حقيقة الدين وحقيقة الدنيا والاخرة •

والعلاقة التى لا تنفصم عراها بين الاثنين ومن هنا كان الولاء الكامل لاحكام الشريعة الاسلامية وكانت الطاعة المتناهية لاوامــر الشرع الحنيف طاعة فى السر والعلن يتابعها ويوجهها ضمير حى يقظ يؤمن بأن الله مطلع على أفعال عباده ما خفى واستتر أو ما ظهر واتضح ،يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، ولا فائدة فى نظر المسلم من ارتكاب ذنب فى وقت لا يطلع الناس فيه عليه ، لانه يعلم علم اليقين ، أن رقيبا من ورائه لا تخفى عليه خافية وهذا أكبر وازع على أن يعيش المسلم دائما فى حدود أحكام الشرع ظاهره كباطنه ، سره كعلنه مع استقرار يقينه على أنه ان أفلت من ســطوة القانون فى الدنيا فانه لن يفلت من عقاب ينتظره فى الاخرة • وعلى هذا فأوامر الشرع الحنيف واجبة الاقامة حتما وعلى الحد الذى حده المشرع الحكيم لما فى ذلك من صلاح البشر الدينى والدنيوى فضلا عما فى ذلك من القيام بواجبات العبودية لله فى الارض •

ويترتب على ذلك أن اقامة الدين سبب للنصر والتمكين فى الارض وهذه سنة من سنن الله الفاعلة فى الكون ، وتكذيب الرسل وانكار ما أتوا به من عند الله جزاؤه الخزى فى الدنيا والعذاب المقيم فى الآخرة ، ومصارع الظالمين بسبب حيدهم عن مقتضيات العدل سنة أخرى من سنن الله وعير ذلك نجد ان سنن الله الفاعله كثيرة على المؤمنين وسائر البشر ان يأخذوا منهـا العظة والعبرة ، لتستقيم لهم حياتهم وتصلح لهم أخراهم •

وفى الوقت الذى وضع فيه المسلمون نصب أعينهم تلك السنن وخافوا أن يأخذهم الله بها ، استقامت لهم أمور الدنيا والدين ، وخضعت لهم أمم الارض وشعوبها ، وفى الوقت الذى غفل فيه المسلمون عن تلك السنن نسيانا لها أو تناسيا بسبب انغماسهم فى ماديات الحياة وزخرفها الفانى ونعيمها الزائل واتباعهم لمن ليس من دينهم ولا يمت بصلة لماضيهم كلما حقت عليهم كلمة ربهم وأصابتهم سنة من سنن الطريق واشتبهت عليهم معالم الجهات فضلوا السعى فى الطريق الى الله •

وليس الاعتبار قاصرا على هذا ، بل ان الاعتبـار بطبيعة الدنيـا وسرعة زوالها والاعتبار بقصر حياة الانسان وسرعة انقضائها ، يدفع الانسان الى أن يعيش حياته فى دائرة الواجبات ، وعلى أن يجد الانسان ربه حيث أمره ، ويفتقده حيث نهاه ، وبذلك تستقيم للناس حياتهم وتسلم لهم أمور دينهم ودنياهم • وهذا ما قصدنا الاشارة اليه عندما أردنا الحديث عن الاعتبار كفضيلة خلقية اسلامية يجب ألا تغيب عن الانسـان ، بل عليه أن يتذكرها طالما بقى فيه عرق ينبض ، ونفس يتحرك لذلك فان الاعتبار بسنن الله الفاعلة فى الكون من أقوى الدوافع لسلوك طريق الآخرة كما أنه من أقصر الطرق وصولا الى الحق وتحقيق عز الدنيا والآخرة •

ونظرا لمـا لتلك السنن من الاهمية البالغة فى نظر المؤمنين الصادقين باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من الاعتقاد الاسلامى ، لذا رأيت كواجب من واجبات العبودية لله فى الارض أن نسوق بعضا من سنن الله كما جاء بها الكتاب المقدس عظة وعبرة على الطريق الى الله ، ونفرد لكل منها مطلبا قائما بذاته •

المطلب الأول

الاعتبار بسنة الله في المكذبين

ان من فضل الله على عباده أن قص عليهم من أخبار الامم الماضية والقرون الخالية عظة وعبرة تقوى معهما الرغبة فى أداء أمانة التكليف ، وتشتد الرهبة من هول يوم الحساب وسوء المنقلب والمصير •

ولقد سجل القرآن الكريم سنة الله مع كل قوم كذبوا رسولهم وعتوا عن أمر ربهم ، وخالفوا الطريق القويم ، وحادوا عن الصراط المستقيم ، وهى سنة ماضية الى يوم القيامة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول فقال تعالى :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » (١) •

وقصص الانبياء والرسل التى حكاها القرآن الكريم تبين لنا نتائج تكذيب الرسل حسدا من عند الناس أو استكبارا منهم، أو تمسكا بما كان عليه الآباء والاجداد من فساد الاعتقادات ، أو تعجبا من بعثة الرسل بشرا ، الى غير ذلك من أسباب حالت بين الناس وبين ادراك حقيقة ما خلقوا لاجله وهى تحقيق معنى العبودية لله فى الارض •

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »(٢) •

---

(١) سورة المؤمنين ٤٢ — ٤٤
(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ — ٥٩

واقامة العدل بينهم والتسوية فى المعاملة حسبما أوتى كل فرد من قدرات طبيعية ومكتسبة ، دون أن يطغى فرد على آخر ، أو تطغى مصلحة جامحة غلابة على أخرى راضية مسالمة هو الهدف الثانى من بعثة الرسل .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١) وهذه هى جماع ما أراد الرسل نقله الى البشرية ، تحقيق العبودية لله ، واشاعة العدل بين البشر .

لذلك فان تكذيب الرسل ، وانكار ما بعثوا لاجله من هداية العقول الضالة تحقيقا لمعنى العبودية لله فى الارض كان مقدمة على مدى الزمن لسنة من سنن الله ماضية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول .

وقصة لوط مع قومه يحكيها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم » (٢) .

وقصة موسى مع فرعون قوله تعالى :

« وفى موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » (٣) .

وقصة قوم عاد وثمود ونوح سجلها القرآن فى قوله تعالى :

« وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم ، وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ، وقوم نوح من قبل أهم كانوا قوما فاسقين » .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥
(٢) سورة الذاريات آية ٣٨
(٣) سورة الذاريات ٤١

وهكذا أنزل الله بالكافرين عقابه ، وحل عليهم سخطه وعذابه ، جزاء اصرارهم على عنادهم ، وتماديهم فى طغيانهم واستمساكهم بعبادة أوثانهم ، قد صمت منهم الآذان ، وغلفت القلوب وعميت الابصـــار ، فكان من شأنهم ما كان ، سنة من عند الله لا تتغير ولا تتحول ولا تتبدل ، فاعتبروا يا أولى الابصار •

واذا انتقلنا الى ما كان من شأن الكفار مع النبى صلى الله عليه وسلم ألفينا سنة الله ثابتة على اصولها لم تتغير ولم تتبدل ولم تتحول مع اختلاف الطريقة فى نزول الانتقام • وقد ظهر ذلك واضحا فى غزوة بدر ، وقد ألقت قريش الى المعركة بأعز أبنائها ، وأقبلت بخيلائها وفخرها تعادى الله وتكذب رسوله ، فأمكن الله رسوله من أعناقهم فقتل صناديدهم وأئمة الكفر منهم • ولما أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى أن يطرحوا فى القليب ، طرحوا فيه ، ووقف عليهم رسول الله صـــلى الله عليه وسلم فقال :

يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، ثم قال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا انى وجدت ما وعدنى ربى حقا فقال المسلمون يا رسول الله ، أتنادى قوما قد جيفوا قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى [1] •

وهكذا مضت سنة الله فيهم جزاء اصرارهم وعنادهم ، وصدهم عن سبيل الله •

ثم يضع الله تبارك وتعالى سننه الخالدة لنبيه صلى الله عليه وسلم فى اطار تشريعى لتبقى خالدة على الزمن قائمة الى أن تقوم الساعة فيقول تعالى لنبيه :

« وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير • فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمـــة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد » [2] •

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٩٢
(٢) سورة الحج ٤٢ — ٤٥

ثم يشير تعالى الى أهمية الاعتبار بما حل بالسابقين من مقت ونزل بهم من عذاب رغم ما جاءهم من الآيات البينات والدلائل الواضحات فيقول :

« أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » [1] .

ولا يذهبن بك الاعتقاد الى أن سنة الله فى المكذبين ليس لها مكان الا فى عهد النبوات وأوقات الرسالات ، بل هى ماضية فى كل من يتنكر أو يصد عن سبيل الله فى كل زمان ومكان أو يحول بين نقل دعوة السماء الى الناس وحملهم عليها .

كما لا يذهبن بك الاعتقاد الى أن سنة الله تقتصر على الامم المكذبة والشعوب التى تتنكر للرسالات ، بل هى متناولة الافراد ، تصيبهم كلما عتوا عن أمر ربهم ، وأفسدوا فى الارض علوا واستكبارا ، ومنعوا حقوق الله وحقوق الناس . .

---

(١) سورة الحج آية ٤٦

المطلب الثانى

الاعتبار بسنة الله فى الظالمين

يسوق القرآن للبشر الكثير من المشاهد عظة وعبرة لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولا لمن ظلم عذر بعد الانبياء ، فيكفوا عن الظلم ، ويعرضوا عن الدنيا وزخرفها الفانى ونعيمها الزائل ، ويعطوا لله حقه ، ولخلقه حقوقهم ونعرض ثلاث مشاهد مضت بها سنة الله فى الدنيا غير ما ينتظر أصحابها من عذاب مقيم فى الآخرة .

رجلين أعطى الله بأحدهما رزقا وفيرا ومالا كثيرا ، جنتين من أعناب ، حفتا بنخل ، ومن بينهما جداول تنساب ، حتى أضحت قرة العين ، وفتنة البصر ولكنه مع كثرة ما أعطاه الله ومن عليه ، منع السائل ، ورد القاصد ، وأغمض عينيه عن رؤية المسكين ، وبدلا من أن يؤمن ويشكر ، ويذعن ويحمد ، أطغاه الغنى وفتنة المال .

أما الآخر فطرح حظوظ نفسه وعاش حياته فى دائرة الواجبات ، يعطى المحتاج ويعطف على الفقير والمسكين ، ويحمل الضعيف ويعين على نوائب الدهر ، ونوازل الايام ، حتى رق حاله ، وضعفت امكانياته ، ولكنه لم يتوقف عن الشكر ، وظل هادىء الضمير ، مرتاح البال ، قانعا بما يعطيه الله ، راضيا بحظه ونصيبه .

فما كان من الذى أنعم الله عليه أن عير صاحبه بالفقر وتعالى عليه بالغنى وقال له أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ولم يرد غناه الى مولاه بل نسب الفضل لنفسه ، والسعة الى كسبه واجتهاده ، فتحققت سنة الله فيه ، وحل بجناته غضب الله ومقته ، فلم يلبث الا أن أرى جنتيه أطلالا

بالية ، ورسـوما دارسة ، وجذوعا خاوية ، وعروشا محطمة ، ومياها غائرة ، فصاح متحسرا وقلب كفيه نادما ، وقال يا ليتنى لم أشرك بربى أحـدا .

وهكذا أحلت عليه النقمة وباء بغضب من الله ، وقص علينا القرآن ما كان من شأنه عظة وعبرة ومثلا للأولين والآخرين فقال تعالى يقص لنبيه ما يضرب به الامثال للناس :

« واضرب لهم مثـلا رجلين جعلنـا لاحدهمـا جنتين من أعنـاب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا،وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السـماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » [1] .

وفى قصة قارون وما كان من شأنه عظة وعبرة لكل من يتكبر ويتجبر فى الارض بغير الحق ، يفتنه متاع الحياة ، ويمنع ما وجب عليه من حقوق الله فيقول تعالى حاكيا لنبيه صلى الله عليه وسلم ما كان من شأنه، وما حل به فى الدنيا وما ينتظره يوم القيامة ، ومصورا طبيعة النفوس البشرية أمام فتنة المال والثراء الفاجر .

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لايحب الفرحين ، وابتـغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصـيبك

---

(1) سورة الكهف من ٣٢ — ٤٣

من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين • قال : انما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون • فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون • انه لذو حظ عظيم • وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون • فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين • وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون » سورة القصص من ٧٦ — ٨٣ •

الصورة الثالثة التى ساقها القرآن عظة وعبرة هى قصة جماعة كانت لهم حديقة وارفه الظلال مخضرة العود ، دانية الثمار ، تفيض بالخير العميم ، ثم خطر لهم أن يبخلوا أو يمنعوا حقوقا وجبت عليهم ، وأصروا على ذلك ، فجعلهم الله عبرة لغيرهم وحاق بهم غضبه فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر فيقول تعالى :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين • وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون • قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين • فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون • قالوا : يا ويلنا انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون • كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » سورة القلم ١٧ — ٣٣

هذه الصور الثلاثة وغيرها فى القرآن وفى السنة كثير ساقها الله لعباده عظة وعبرة ، والجزاء فيها دنيوى وأخروى ، دنيوى بذهاب ما من الله من متاع الحياة ، وأخروى بعذاب الله يوم القيامة ، لان أموال الاغنياء محملة بحقوق للفقراء فريضة من عند الله لم يرض الله فى

تقريرها بملك منزل ولا بنبى مرسل حتى قسمها بنفسه وأوجبها حقا ثابتا ليس لاحد أن يمنعها أو يعطلها لان منعها أو تعطيلها خروج عن العدل الذى قامت عليه السموات والارض وكل ما خرج عن العدل هو الظلم بعينـــه •

على هذا النهج يسير الاسلام فى ضرب الامثال ليأخذ الانسان العبرة من سنن الله فى الاقوام والافراد ليجرى الانسان شوطه المقدر له فى هـــذه الحياة ، يرجو الحسنة ، ويستغفر من السيئة ، ويسمو فوق كل اعتبار مادى أو معنوى قد يبتعد به عن حظيرة الدين ، ويقذف به فى تيار الظلم وزمرة الظالمين وما أكثرهم فى كل زمان وحين •

وجماع ما يمكن أن يقال فى هذا المجال هو أن الغريزة الانسانية قوامها الحرص والطمع فمن كبح جمـــاح شهوته وكسر حدة أهوائه وأغراضه ومطامعه ومطامحه وجعل لعقله سلطانا على هواه فأولئك هم الذين يكرمهم الله فى الدنيا ويرضى عنهم فى الآخرة ، وأما من ترخص لشهواته وانساق مع أهوائه وأغراضه ، وجعل لهواه سلطانا على عقله ، فهو من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وذلك هو محك الطبيعة الانســـــانية وممتحن النفس البشرية فى هذه الارض • وقد ضرب الله لذلك الامثال عظة وعبرة على مدى القرون والاجيال •

المطلب الثالث

الاعتبار بطبيعة الدنيا وقصر حياة الإنسان

من المشاهد التى أوردها القرآن وركز عليها طبيعـة الدنيا وسرعة زوالها وتقلب الايام وقسوتها ، ليأخذ منها الانسان العبرة والعظة ويقدم لنفسه فيها من الاعمال ، ما هو ذخر له بعد الوفاة ويقول تعالى:

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبـح هشيما تذروه الريـاح وكان الله على كل شىء مقتدرا • المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (١) •

« يا قـوم انما هـذه الحياة الدنيا متـاع وان الآخرة هى دار القرار » (٢) •

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (٣) •

الدنيا أنفاس معدودة وساعات محدودة عند انقضائها تلف أعمـال الانسان ويطوى سجله ويحال بينه وبين هذه الدار ويلقى به الى دار القرار وحيدا فريدا بعد عز ورفعة ، رهينا بنتائج أعماله وسابق ما قدمه

---

(١) سورة الكهف ٤٥ ـــ ٤٦ .
(٢) سورة غافر ٣٩
(٣) سورة الحديد آية ٢٠ .

من خير أو اقترفه من اثم وذنب ومن مات انقطع عمله ، وفات أمله ، وحق ندمه ، وتوالى حزنه وهمه ، ينتظر تحت التراب يوم الحساب ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه» «ويوم تضع كلذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد »، والجنان مفتحة أبوابها تستقبل عباد الله الصالحين ، والملائكة تناديهم من كل جانب سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وجحيم تتأجج ، وسعير تتوهج ، ونار تتلظى تستقبل من فرط فى حق الله وحق عباده ، يقال لهم هذا ما كسبتم لانفسكم فذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون •

ان الدنيا معبرة للآخرة وجسر موصل اليها ، أجل الانسان فيها مغيب عنه وعمره فيها محسوب عليه ، والسعيد حقا من يغتنم هذه الفرصة النادرة التى لا تتكرر من أجل حياة أخرى لا تقاس بملايين السنين لانها الخلود ، والشقى حقا من يجرى شوطه المقدر له فى هذه الحياة ، لا يرجو حسـنة ، ولا يستغفر من سـيئة يلهو بمتاعها الزائف ، ويلهيه زخرفها الفانى ، ويعيش فيها عيشة السوائم والعجماوات وفى ذلك حتفه وهلاكه •

السعيد حقا هو من يعيش حياته عاكفا على طاعة ربه ولو أسخط جميع الناس أملا فى ارضاء مولاه ، يعطى سائلا ، ويعين قاصدا ، ويسعف محروما ، ويحمل كلا ، ويرحم مسكينا • ويكتسب من حلال ، ولا ينفق الا فى حلال وعلى طيبات أحلها الله لعباده ، يؤدى فرائض الله كما أمره الله أن يؤديها ، مع توافر نية الاخلاص فيها ، يعطى بيمينه فلا تدرى شماله ما أعطت يمينه ، يخرج للقتال مرضاة لله وتمكينا للدين فى الارض ، قد ألزمه ربه كلمة التقوى فهو أهل لها وأحق الناس بها •

والشقى حقا من يقع فى أعراض الناس وحرماتهم ولو كان فى ذلك سخط الله ومقته ، يؤدى فرائض الله حتى يكتسب الذكر عند الناس . وينفق عن سعة حتى يشاع عنه خلال الجود والكرم ، يخرج للقتال حتى ينال الحظوة عند البشر ، قد اعتز بالدنيا من دون الله ، فحبط عمله وكان من الخاسرين •

فالتقى هو السعيد حقا ولو لم يجد الا كسرة خبز جافة ، والفاجر هو الشقى حقا ، ولو تسربل بسربال الجاه والسلطان ، وشتان ما بين

الاثنين ، ويابعد ما بين الرجلين ، احدهما من أولياء الله ، تولى الله ، فتولاه الله ، والآخر من أولياء الشيطان ، قد حرمه ربه ، من لذة القرب وحلاوة الايمان •

فالعاقل حقا وصدقا من أخذ العبرة من طبيعة الدنيا وطبيعة ما فيها من متاع وليعلم انه غدا سيحاسب عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عمره فيم ضيعه ، وعن شبابه فيم أفناه فليأخذ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت فليس بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار ، وما أبلغ ما قاله الشاعر عظة وعبرة •

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت
أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
الا التى كان قبل الموت يبنيها
فان بناها بخير طاب ساكنها
وان بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلطنة
حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت
أمست خرابا وأفنى الموت أهليها
لكل نفس وان كانت على وجل
من المنية آمال توفيها

ويقول آخر

تأهب للذى لابد منه
فان الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم
لهم زاد وأنت بغير زاد

فاذا تأمل الانسان فى حال من مضى من آبائه وأجداده واخوانه وأحبائه ، وكيف انقطعت عنهم أعمالهم ، ولم تنفعهم أموالهم ، وجب عليه أن يأخذ العبرة والعظة ويعمل ليوم يقف فيه بين يدى خالقه ومولاه ، حيث تنصب الموازين وتنشر الدواوين ، ويتعلق المظلومون بالظالمين ، ويحاسب الله عباده على القليل والكثير ان أقر الانسان أخذه الله بالاقرار ، وان أنكر لم ينفعه الانكار ، وبعدها يساق أهل الشر الى سقر ، ويساق أهل الخير الى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وعن يوم الحساب يسوق القرآن المشاهد الكثيرة عظة وعبرة نكتفى بقوله تعالى :

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهم أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » [1] .

---

(١) سورة الزمر . ٦٨ — ٧٥

المطلب الرابع

الاعتبار بسنة الله في المؤمنين

واذا كنا قد تناولنا الحديث عن الاعتبـــار بسنة الله فى المـــكذبين والظالمين كما أشرنا الى ضرورة أخذ العبرة من طبيعة الدنيا وقصر أجل الانسان فيها ، فان الاعتبار بأسباب التمكين للمؤمنين وعزتهم من بعد ذلة ، ومنعتهم وقوتهم من بعد ضعف ، أولى وأحرى أن يشار اليها فى وقت فيه المسلمون يحاولون تلمس الطريق الى مافيه عزتهم ومابه تتحقق لهم كرامتهم ، ولا شك أن الحديث عن هذا الموضوع واسع وعريض ، شامل وعميق ، نكتفى منه بالاشارة الى مابه تتحقق العـــبرة ، وتبرز العظة ، ومشاهد ذلك فى القرآن وفى السنة كثيرة ، وواقع البشرية منذ خلق الله البشر حافل بسنة الله فى التمكين للمؤمنين ، ويلاحظ هذا بوضوح فى تاريخ الدولة الاسلامية على وجه الخصوص عندما نتلمس فترات قوتها وفترات ضعفها مردودة الى أسباب التمكين فى الاولى ، ومردودة الى أسباب الضعف فى الثانية ، حيث كان التمكين نتيجة حتمية لاتباع هدى الله الذى شرعه وسلوك الصراط المستقيم الذى حدده وكان الضعف نتيجة لازمة لحياد المسلمين عن سبيل الله ، وانحسار الاسلام بأصوله وأحكامه بفعل المسلمين عن واقعهم واتجاههم الى أنظمة لا تتفق وضميرهم فى التشريع والاحكام والعادات والمعاملات والسنن والاخلاق فكان من أمرهم ما كان على ما هو معروف تاريخيا ، ويشهد به واقع المســـلمين فى ماضيهم وحاضرهم ، سنة من عند الله لا تتبـــدل ولا تتغير ولا تتحول .

ولقد سبق أن رأينا ماحل بالمكذبين والظالمين من عقاب وما نزل من بلاء ، احباطا لمكرهم ، وردا لكيدهم ، تصديقا لوعد الله ، وتأييدا لرسله وأنبيائه ، بعـــد أن بلغوا رســـالات ربهم ونصـــحوا أممهم

وشعوبهم ، ولكنهم رفضوا النصح ، وكرهوا الانقياد ، فكان من شأنهم ما كان عبر القرون والاجيال •

وكما توعد الله الامم المكذبة والشعوب الظالمة بمقته وغضبه ، ووعد المؤمنين الصادقين بالنصر والتمكين أمما وأفرادا وجماعات ، كلما استجابوا لربهم ، وتحملوا مرارة الصبر فى اقامة الحق ، وازاحة الباطل ، وصبروا على ما يحل بهم من كيد أو ينالهم من ألم نتيجة اصرارهم على ايمانهم ثقة بالله ، وايمانا به ، واطاعة لامره •

وسنة الله فى المؤمنين الذين وعدهم بالنصر والتمكين وأخذ على نفسه العهد والميثاق باستخلافهم وابدالهم طمأنينة من بعد خوف وعزة من بعد ذلة وهوان ، وقوة من بعد ضعف ووحدة من بعد تفرق وانقسام ، لا تتحقق الا اذا توافرت فى المؤمنين صفات طلبها الله وأكدها ، يسيرون عليها كمستوى رسمى للسلوك فى أنفسهم وفيما بينهم وفى علاقاتهم بربهم وغيرهم من أمم الارض على اختلاف الاديان والاجناس واللغات واللهجات وفى مختلف البيئات والازمان • وبالجملة فانه اذا توافرت الاعمال الصالحة المرتكزة على حقائقها فى القلوب تحققت سنة الله فى المؤمنين بالنصر والتمكين •

وتلك الصفات هى ما تحققت لاول مرة فى عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة ، فقد رأت البشرية مجتمعا متوازنا كانت العدالة فى شتى نواحى الحياة وجوانبها أبرز صفاته ففى مجال العبادات ركب المسلمون فى طريق الوصول الى الله أقصى ما تبلغه الطاقة وأخذوا بالعزائم فلم يترخصوا فى كل موضع رأى المشرع الحكيم أن يرخص فيه ، وتخفيفا على المكلفين ورفعا للحرج والمشقه وكان شعارهم فى ذلك أن المر فى طاعة الله يحلو للمحبين • وأن الانسان لو خر ساجدا الى يوم القيامة لما وفى الله حقا ، ولا أدى اليه شكر نعمة انعمها عليه وفى علاقاتهم ببعضهم كان الوفاء الذىولده الاخاء شعارهم، فى معاملاتهم وأقضيتهم فى حساسية مرهفة فرضها الدين على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، وأشاعها فى أخلاقهم واجتماعهم ، يأخذ الغنى بيد الفقير ، والقوى بيد الضعيف ، والعالم بيد الجاهل ، فى تكافل اجتماعى رشيد قد خلا تماما من الاثرة والانانية وأشاع جوا من الايثار والمحبة والتضحية •

وفى علاقاتهم بغيرهم ، كان القسط والبر بهم شريعتهم أمرا من عند ربهم لا سبيل الى مخالفته ، ولا طريق الى مجاوزته ايمانا منهم بأن الله خلق البشر للتعارف والتآلف وليس للتباغض والتناكر والتحاسد .

وفى علاقاتهم بدولتهم كان الموت أحب اليهم فى سبيل الدفاع عنها والتمكين لها ، فى وفاء كامل لقيادتهم السياسية والدينية ، وكـــان شعارهم اذا دعا داعى الجهاد أن يهبوا سراعا مجاهدين لنشر الفضيلة واعلاء الدين مخلصين فى قتالهم ، شجعانا فى تقدمهم ، شرفاء مع عدوهم ، كما كان شعارهم أن يأخذ حاكمهم من أموالهم ما يشاء ، ويدع ما يشاء ، وكان ما يأخذ أحب اليهم مما يدع ويترك .

وكانت علاقتهم بحاكمهم وعلاقته بهم قائمة على العدل ، مستندة الى الشورى ، مؤيدة بالطاعة والتضحية ، والاعانة ، فلم يعرفوا سلطة قاهرة سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير والتنفير من الشر وهى تلك السلطة التى خولها الله للمسلمين يقرع بها أدناهم أنف أعلاهم ، وكان شعارهم أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، كما كان الحاكم وكل من تولى أمرا من أمور المسلمين حريصا كل الحرص أن يأخذ المسلمين بما أوجبه الشرع فى أمور دينهم ودنياهم ، وبتوافر تلك الصفات تكونت كتلة بشرية متزنة وجهتها واحدة ومقصدها واحد فكان منها الحاكم العالم العادل المشاور ، ورئيس الجند القوى ، والقاضى العادل ، وصاحب الولاية العفيف لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، ينصف المظلوم ويشتد على الظالم ، القريب والبعيد والقوى والضعيف وكل فاضل ومفضول عنده فى الحق سواء .

وقد عبر القرآن عن تلك الكتلة البشرية المؤمنة المتزنة المتوازنة فى قوله تعالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم

الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » (١) .

وبذلك تحققت سنة الله فيهم فاستخلفهم ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وأبدلهم من بعد خوف أمنا ، ومن بعد ذلة عزة وكرامة ، وأمسكوا بالقياد والزمام ، يقودون البشرية الى حيث الامن والطمأنينة والسلام ، فدين متبع ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دار ، وأمل فسيح اتسعت بسببه النفوس .

وتلك سنة خالدة من سنن الله فى الكون لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ، ولن تتحقق تلك السنة الا اذا أخذ المسلمون بأسباب الفلاح ، ولن يكون ذلك الابرجعة قوية الى دينهم يتلمسون الحلول لمشاكلهم ، ويرفعون القواعد من أجل مستقبلهم وصدق عمر بن الخطاب عند ماقال لابى عبيدة بن الجراح :

انكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ،فأعزكم الله بالاسلام ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله (٢) .

---

(١) سورة الفتح . الآية : ٢٩

(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٦٠.

الفصل الثالث

فهم طريقة التمكين للنظام الإسلامى

لا شك أن نجاح أى نظام من الانظمة التى يجود بها الفكر البشرى يتوقف بالدرجة الاولى على مدى فهم الخاضعين للنظام للتمكين له ، ونقل أحكامه الى الواقع العملى والحفاظ عليها واتخاذها مستوى رسمى للسلوك بين المخاطبين بتلك الاحكام • واذا لم يتوافر هذا الفهم بين المزيج التى تتكون منـــه الدولة المحكومة بهذا النظـــام وهم الرعايا والمحكومون فلن يقدر للنظام النجاح ، بل سيمضى حتما الى مـــداه المقدور الذى قد يقصر أو يطول •

وان من يتتبع تاريخ البشرية الطويل باعتباره رقيب الحياة ، يرى أنظمة تعاورت على البشرية منها ما تمكن وأثمر ، ومنها ما عصفت به الريح بالدرجة الاولى الى مدى فهم الخاضعين للنظام لطرائق التمكين له ، وانصرافهم الى أصوله يحكمونها فى أحوالهم وطباعهم • وقد رأينا أن يسقط من الحساب تلك الانظمة جاد بها الفكر البشرى على فترات متباعدة ولم تكن الا تدبيرا من تدابير السياسة او حيلة من حيل الحكم لمصـــلحة فردية ، أو لنزوة جامحة غلابة ، فتلك الانظمة وما جاءت به من أحكام لم توضع الا لتشديد القبضة والابقاء على السلطة ، وقهر المحكومين على الخضوع للنظام ، بعيدا عن تحقيق الخير المشترك للجماعة • وكان طريق الخلاص من تلك الانظمة اما بثورة تتفجر من الداخل ، واما بهزيمة فى حرب تهب على الدولة من الخارج •

واذا رجعنا الى أسباب التمكين للنظام الاسلامى وبلوغ تطبيق أحكامه فى ميادينها المختلفة درجة من الكمال لم يبلغها نظام من الانظمة وفى فترة لا يحسب لها فى عمر الزمان حساب ، وأرجعنا ذلك الى أسبابه وجدنا الاسباب كامنة فى طبيعة النظام الاسلامى نفسه ، وفى طريقة

فهم كل من انحاز لهذا النظام بجد واخلاص لطريقة التمكين له وأحقيته فى قيادة البشرية والاخذ بيديها الى حيث الامن والطمأنينة والسلام .

لقد قام النظام الاسلامى من أجل البشر ولتحقيق مصالحهم الدينية والدنيوية وذلك بحفظ الضروريات الخمسة وهى الدين والنفس والنسل والعقل والمال التى يقوم عليها الوجود الدينى والدنيوى بحيث لو انحرفت لم يبق للدين والدنيا وجود .

ومن بين ما قاله الامام الشاطبى فى هذا المعنى أن وضع الشرائع اما أن يكون عبثا أو لحكمة فالاول باطل باتفاق . وان كان لحكمة ومصلحة فالمصلحة اما ان تكون راجعة الى الله تعالى او الى العباد . ورجوعها الى الله محال ، لانه غنى ويستحيل عود المصالح اليه ، فلم يبق الا رجوعها الى العباد (١) .

وحفظ هذه الامور لا يكون الا عن طريق التكاليف الشرعية التى جاءت بها الشريعة لتخرج المخاطبين بأحكامها عن دواعى أهوائهم وذلك بخضوعهم لتكاليف الشرع فى جميع حركاتهم ، وأقوالهم واعتقاداتهم ، يقدمون ما قدمه الله ورسوله ، ويؤخرون ما أخره الله ورسوله وطريقة حفظ كل أمر من الضروريات المشار اليها ثابت موضوع فى خطاب المشرع الحكيم ،فقد بين الله سبحانه على لسان رسوله بكلامه وكلام رسوله جميع ما أمر به وجميع ما نهى عنه وجميع ما أحله وجميع ما حرمه ، وجميع ما عفى عنه ، وبهذا أحاطت الاوامر الشرعية بجميع أفعال المكلفين فيكون دينه كاملا كما قال تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

واذا كان النظام الاسلامى قد قام من أجل البشر ولصالح البشر ، فان اقامته والتمكين له يجب ان يعتمد على سواعد البشر وعلى كواهلهم دون انتظار لخارقة من الخوارق أو معجزة من المعجزات تقيم لهم الدين أو تهديهم الى الصراط المستقيم .

---

(١) الموافقات للشاطبى ج ٢ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

ولقد برز هذا المعنى واضحا فى الشريعة الاسلامية من أول صيحة من صيحات الدعوة الى الله ، فلم يعتمد النبى صلى الله عليه وسلم على المعجزة لاقناع البشر بالايمان بالله وبصدق رسالته ، بل خاطب العقل ودعاه الى التفكر فى عظيم ملك الله من سماء وأرض وجبال وسحاب ونبات ومالا يحصى من الامور يفهمها الانسان ويستدل بها على الصانع الحكيم القادر • ولم يكتف الاسلام بذلك بل خاطب الانسان بدلائل التوحيد فى نفسه وبما هو مجموع فى بدن الانسان من أشياء متضادة من شأنها التنافر والتباين والتفاسد وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة • وهذا يدل على أن جامعا جمعها وقهرها على الاجتماع وأقامها بلطفه ولولا ذلك لتنافرت ولتفاسدت • وهذا الذى جمعها وقهرها على الاجتماع والالتئام هو الواحد القهار •

وغير ذلك مما جاء فى القرآن والسنة الكثير من الاعلام بأحوال الامم الماضية والقرون الخالية وتقلب الاحوال ، حياة من العدم ، وموت بعد الحياة ، وبعث بعد الموت ، الخير والشر ، الجوهر والعرض ، الصحة والمرض ، الحق والباطل ، تغير القلوب ، تداعى دول وقيام غيرها ، وبالجملة جميع ما فى هذا العالم وما يحدث لهذا الجميع كلها شواهد ناطقة وأدلة قائمة لا يرقى اليها الشك على وجود اله واحد خلق ودبر وصرف وحرك وتفرد وحده بالبقاء والدوام •

وجماع ما سبق أشار اليه القرآن فى قوله تعالى :

قل انظروا ماذا فى السموات والارض » سورة يونس ١٠١

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » سورة الذاريات ٢١

ودعوة الاسلام الى التفكر والتدبر والتأمل جاءت تترى وتتتابع فى الكتاب منزل ، وبذلك نقل الاسلام الاعتقاد من دائرة المعجزات الى دائرة العقل والمنطق •

واذا كان الاسلام قد اعتمد على الفكر الانسانى فى أخطر قضية من قضايا الدين وهى قضية التوحيد ، دون الاعتماد على الخوارق والمعجزات ، فانه بلا شك قد ترك اقامة الدين والتمكين له للبشر أنفسهم ، أصحاب المصلحة الحقيقية فى اقامة النظام الاسلامى على أصوله المستقرة التى أمر الله عباده اقامته عليها •

وهذا المعنى ظاهر جدا فى الشريعة الاسلامية على صفحات القرآن بلا ايغال فى أعماقه ، ودليل ذلك عموم الآيات الدالة على وعود الله بعباده المؤمنين به وبشريعته ، سواء ما كان من تلك الوعود دنيويا وما كان منها أخرويا ، حيث يسبق العمل فيها الوعد والجزاء .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لسيتخلفهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا : سورة النور آية ٥٥

« جزاء بما كانوا يعملون » سورة الواقعة آية ٢٤

؟ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره : الزلزلة ٧ـــ٨

وهذا ما فهمه الرعيل الأول الذى تلقى تربيته على يد النبى صلى الله عليه وسلم وشهد اتصال الارض بالسماء ، وشهد واقع الاسلام العملى باعتباره انطباق لاصول الاسلام على الحياة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخليفتين عمر بن الخطاب والصديق رضى الله عنهما .

وقد عبر عن ذلك الخليفة الثانى رضى الله عنه أبلغ تعبير وأصدقه عندما أراد تدوين الدواوين وجاءه من قرابته من جاءه يريدون أن يضعهم فى وضع يتميزون به على الناس فقال لهم قولته الخالدة « بخ بخ بنى عدى أردتم الاكل على ظهرى وأن أهب حسناتى لكم : لا والله حتى تأتيكم الدعوة ، وأن يطبق عليكم الدفتر يعنى ولو أن تكتبوا آخر الناس . ان لى صاحبين سلكا طريقا فان خالفتهما خولف بى . والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا وما نرجو الثواب على عملنا الا بحمد الله عليه فهو شرفنا وقومه أشرف العـــرب ثم الاقرب فالاقرب . والله لئن جاءت الاعاجم بعمل وجئنا بغير عمل لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه (١) وعلى هذا الفهم لحقيقة اقامة النظام الاسلامى كان يحدد أحقية المسلمين فيما أفاء الله عليهم فيقول : « والله الذى لا اله الا هو ما أحد الا وله فى هذا المال حق

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٣٦ .

أعطيه او منعه ، وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك ، وما أنا فيه الا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وتلاده فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام ، والرجل وحاجته فى الاسلام ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه يعنى فى طلبه [1] .

وعلى هذا الفهم لرسالة الاسلام وطريقة التمكين له قام النظام الاسلامى وانبثق الحكم الاسلامى يجمع بين السلطان الدينى والدنيوى وقامت عليه حكومة من أكبر حكومات الارض تهتم بالدين وترعى الاخلاق ، وتغرس الفضائل الخلقية ، وتطهر النفوس من أدرانها ، كما تهتم بالسعى وتحصيل الرزق من أجل حياة مادية كريمة تليق بكرامة الانسان .

ولا شك أن هذا النصر الخارج عن مألوف البشر وعن طاقتهم ، وهذا التمكين الذى أوتيه المسلمون بعد أن عزلوا الجاهلية بأوزارها وأثقالها من قيادة البشرية وامامتها ، وهذا المجهود الذى فاق أقصى ما تتحمله طاقة البشر فى توسيع الآفاق لدعوة الاسلام عن طريق السيف فى الحرب ، وعن طريق النضال عن الدين ودفع الشبهة عنه بالبراهين فى وقت السلم يرجع الى أن مجىء الاسلام كان استجابة لنداء الفطرة فتم التلاؤم السريع بين ما أتى به من أصول وأحكام وبين ما كان حلما يراود أدمغة الناس وعقولهم من أمانى وآمال . فاعترف للانسان بحقه الكريم فى الحياة على أساس من معرفة الله وحقوقه عليه ، وعلى أساس من معرفة الانسان لحقيقة وجوده فى الارض واستخلافه فيها .

ويتصل بذلك فهم المسلمين العميق لرسالة الاسلام وكيفية التمكنية لها ، فلم ينتظروا أن ينصرهم الله بضرب من قدرته ، فاندفعوا نحو اقامة أصوله وأحكامه على أنفسهم وعلى غيرهم ، دون اعتماد على خارقة من الخوارق ودون انتظار لمعجزة من المعجزات .

وسرعان ما دبت الحياة فى أوصال البشرية المترنحة ، واستردت ما

---

(١) الخراج لابى يوسف ص ٤٦

ضاع من عافيتها ، وعادت الى فطرتها السليمة مع اشراقة التوحيد التى أظلتها من جديد .

وكان من نتيجة ذلك أن رد الاسلام كل انسان الى موضعه فى الحياة ، لا يقصر عنه ولا يجاوزه الى غيره فيتعداه . فكان من هذا الانسان الحاكم العالم المشاور ، والقاضى العادل ، ورئيس الجند القوى ، وصاحب الولاية العفيف ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخاف فى الله لومة لا ئم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، ينصف المظلوم ويشتد على الظالم ، القريب والبعيد ، والقوى والضعيف عنده فى الحق سواء .

وعلى كاهل هذا الانسان المسلم استمر الاسلام ينير للبشرية طريق الأولى والآخرة ، ويجمع بين خيرهما ، يدفع الظلم ويقيم العدل ، ويتمكن فى القلوب والأرواح ، ويثمر فى الاقوال وفى السلوك والافعال ، ويفتح البلدان ، وينتقص أرض الجاهلية ويقلص ظلها ، ويخلص الشعوب من ظلمها ، ويرفع ألوية السلام ، ويشرف على التكوين المادى وعمارة البلدان ، اشرافه على التكوين الروحى والخلقى لابناء الاسلام ، ويؤكد كرامة الانسان ، ويقرر له حقوقه وحرياته ، ويؤكد ضماناتها ، ويوفر الحماية لها ، ويزن الناس بموازين معرفتهم وليس بموازين أحسابهم وأنسابهم وأموالهم ، ويبوئهم مكان الصدارة والامامة والولاية على المسلمين ، حتى كان هم الوالى بالمسلمين أشد من همه بأمر نفسه . وبذلك التقى الحاكم والمحكوم على جامع واحد يجمعهما وهو اقامة الدين على أصوله المستقرة . وتركت الفترة المشرقة من تاريخ الاسلام مرجعا كاملا من الواقع العملى لما أتى به الاسلام من الاصول والاحكام ما تعلق منها بالدين أو ماتعلق بالدنيا ومشكلاتها ، وكيفية مواجهتها .

وظل الاسلام ينير للبشرية طريق الأولى والآخرة ، فدين متبع ينقاد الناس لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ، ويستسلمون لأمره فلا تنصرف بهم الاهواء لأن الوجهة واحدة ، والمقصود واحد ، وسلطان قاهر تجتمع حوله القلوب يأوى اليه المضطرون ، ويلوذ به الخائفون ، وعدل شامل متجرد عن الاهواء والأغراض ، وأمن عام يستروح الناس فى ظله نسمات الحرية ، وأمل فسيح اتسعت بسببه النفوس ، وخصب دار يسع

الحاكم والمحكوم ، وخروج المقاصد من الدنيا الى الدين ، ومن الهوى الى الحق ، ومن وراء ذلك نفوس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها ، وألفة جامعة تتعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها فكان ذلك بلا شك أروع منظر لسلطان الدين شهدتها البشرية فى تاريخها الطويل .

وظل الأمر كذلك ما كان الميزان قائما بفهم المسلمين لحقيقة اقامة الدين والتمكين له ، فلما رفع الميزان وغفل المسلمون عن طريقة التمكين لدينهم ، نقضت عرى الاسلام عروة عروة ، وأطلت العصبية برأيها وعادت الأمور كما كانت ولن كانت فأخذ الله القلوب عن الالفة ، فصار الخلائق عزيز فى كل واد من العصبية يهيمون ولم تزل تضعف قوة المسلمين ويتقلص حكم الاسلام فى الارض ، وتنتقص أرضه من أطرافها شيئا فشيئا بانحرافهم عن سيرتهم الاولى وحيدهم عن طريقتهم المثلى حتى طمع فيهم أعداؤهم فكانت الحروب الصليبية التى ظهرت فيها الرغبة القوية الجامحة تغذيها كراهية دفينة تتاح سنين طويلة مضت . للنيل من الاسلام والمسلمين . ثم كانت حروب التتار فى القرن السابع التى مزقت الاسلام شر ممزق وبذلك انتهى عهد اسلامى مشرق أفاض على البشرية بالخير والطمأنينة والسلام الى أن أتى على المسلمين زمان وكل دولة من دوله واقعة تحت سلطان دولة غيرها ليست من أهلها ، وكأنما أصبحت دول الاسلام ميراثا لغيرها من الدول تداعى عليها كما تداعى الأكلة على قصعتها .

والنتيجة الحتمية أن غدت الدول المحتلة للدول الاسلامية هى صاحبة السلطان المطلق فى ادارة شئون البلاد الاسلامية ، تشرع وتقنن لها ، وتوجهها فكريا وسياسيا واقتصاديا بما يبعد الدول الاسلامية التى يجرى عليها واقعها بعيدة كل البعد عن ظروفها وضميرها وحاجاتها فأصابها من الوهن العقلى والروحى ما أصبحت معه عاجزة عن النظر فى علوم الدين ، حتى استشرى الجهل وطويت صفحة السابقين ولم يعد من يخلص النية للنظر فيها والعمل بمقتضاها وحمل الناس عليها وعرضها على الامم والشعوب والدعوة اليها .

ورغم تتابع الصدمات الواحدة تلو الاخرى على العالم الاسلامى فقد ظهرت بوادر الخير فى آفاق الدول الاسلامية فى القرن العشرين ، بعد أن استخلصت الدول الاسلامية استقلالها من الطغاة المتحكمين فيها ،

وتحاول جاهدة أن تبنى أقدارها وتحدد مصيرها بنفسها ، وتبـــدو الخطوات الاولى التى تخطوها الامم الاسلامية فى هذا السبيل متوالية موفقة لا تخشى عليها الرجعة ان هى أخذت فى الحسبان أن اسلامها هو الهدف الذى تسعى الى تحطيمه الدول ذات الانظمة التى تقتسم العالم اليوم باعتباره الخطر الكبير الذى يهدد أنظمتها ويأتى عليها سبق له أن أتى على أشباهها ونظائرها شرقا وغربا عندما أهل على الدنيا من قلب الصحراء وفى مدة لا يحسب لها فى عمر الزمن حساب .

والطريق الى اعادة استئناف حياة اسلامية جديدة تتوقف فى النهاية على اعتبارين لا ثالث لهما :

أولهما : أن يدرك المسلمون أن اقامة النظام الاسلامى هو من أجل البشر ولصالح البشر جميعهم ، المسلمون منهم يجمعهم الاخاء الاسلامى بكل جلاله وقدسيته ، وغير المسلمين منهم يجرى المسلمون فى معاملاتهم على أساس الاخاء الانسانى وقوامه البر بهم والوفاء لهم فريضة من عند الله لا حجة لمن يقصر فى معاملاتهم ولا عذر عند الله لمسلم لا يراعى أن البشر ولصالح البشر جميعهم ، المسلمون منهم يجمعهم الاخاء الاسلامى واحدة مهما اختلفت الاديـــان ومهما بعدت أو قـــربت الديار وطالت الاســـفار .

ومصلحة البشر وكفالتها أظهر ما يكون فى خطاب المشرع الحكيم على صفحات القرآن وفى سنة نبيه العظيم ، حيث جاءت الشريعة بما جاءت به لحفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال وهى كل ضروريات الدنيا والآخرة ، بحيث يترتب على حفظها وتأكيد ضماناتها استقرار حياة البشر الدنيوية ، والفوز برضاء الله فى الآخرة وهذا غاية ما يتمناه الانسان من دنياه ، وغاية ما يرجوه مؤمن من ربه يوم يلقاه .

ثانيهما : أن اقامة النظام الاسلامى والتمكين له ، والزود عنـــه ، واستمرار الدعوة اليه وقتال كل من يقف فى طريقه ، لن يكون الا على أيدى البشر أنفسهم وبكل امكانياتهم وما تطيقه أنفسهم دون أن ينتظروا خارقة من الخوارق أو معجزة من المعجزات تقيم لهم الدين أو تهديهم الى الصراط المستقيم اللهم الا العهود والمواثيق التى قطعها الله على نفسه ينصر من ينصر حججه وبراهينه ، ويعمل من أجل التمكين لشريعته

والانتصار لدينه وفق ما ألقاه الله على عاتق البشر من تبعـــــات ومسئوليات •

وفى هذا المعنى يشير الدكتور صفاء الدين الريس الى أن المسلم ينظر اليه ابتداء على أنه مكلف أى ملزم بأداء واجب أو مجموعة من الواجبات قبل أن ينظر اليه على أنه صاحب حق فيقول من بين ما قال أن الحقيقة العامة التى ينبغى أن تقرر أنه بينما ترمى الدساتير الحديثة والقوانين الوضعية الى أن تجعل قاعدتها الرئيسية فى وضع الاحكام فكرة الحقية والامتلاك ، نرى الشريعة الاسلامية ــ وهذه احدى الخصائص التى تمتاز بها ــ ولاسيما وهى بصدد وضع أحكام لتنظيم نشاط الانسان السياسى أو تحديد صـــلة الفرد بالمجتمع تهدف الى أن تجعل قاعدتها الاولى فكرة الوجوبيـــة والالتزام أكثر ممـــا تجعل فـــكرة الحقيـــة والاستحواذ • فالانسان فى عرف الشرع لا ينظر اليه ــ أولا ــ على أنه صاحب حق ، ولكن ينظر اليه على أنه متحمل مسئولية أو ملزم بأداء واجب أو طائفة من الواجبات • ولذا فان الـــكلمة التى تطلق عليـــه باعتباره فردا ذا صفة سياسية أى عضوا فى مجتمع هى عنـــد علماء الشريعة الاسلامية كلمة ؟ مكلف : فكل فرد بالغ عاقل من ذكر أو أنثى بدون أدنى تفرقة من حيث النظر الى المكانة أو الطبقة أو النسب حتى الانبياء والحكام أيضا متساوون فى هذا الرعية ــ هو ؟ مكلف : أى مسئول والدولة ــ فى المجتمع الذى نسميه بهذا الاسم ما هى الا مجموعة من ؟ المكلفين : ومن أجل هذا فان الذى يتفـــق مـــع روح الشريعة أن يتكلم فى الاسلام عن واجبات الانسان أكثر مما يتكلم عن حقوقه اذ أن أساس النظر هو مالك الحقوق جميعا هو الله سبحانه وتعالى هو الخالق وواهب الحياة للانسان والمخصص له صفاته والمنعم عليه بكل النعم التى يتمتع بها وملكيتها تبقى حقا خالصا لله تعالى الذى أوجدها وأعطاها وانما الانسان ملزم ومكلف بالمحافظة على هذه النعم وصيانتها والانتفاع بها فى الحدود التى رسمت لها واستعمالها فيما خلقت من أجله والانتفاع الرشيد بهذه المواهب •

ويستطرد الى القول بأن فكرة الوجوبية هى الغالبة فى الشريعة والشرع فى صميم موضوعه أو أكثر أجزائه هو مجموعة من الواجبات أو الفروض بعضها متعلق بالايجاب وبعضها متعلق بالترك وبعضها فرض على الانسان كفرض وأخرى فرضت على المجموع والتعريف العام للفرض

على ما ذكروه « كل متحتم قصد الشارع حصوله : والشارع هو الله سبحانه وتعالى وحده ، فلا مصدر للفريضية أو الوجوب فى الاسلام الا ارادته ، وعدم القيام بالواجب مخالفة لامر الله تعالى [1]. ولا شك أن اقامة أحكام الشريعة وعدم تعريض حرماتها للضياع يلقى على المسلمين تبعات جسيمة ومسئوليات خطيرة مستمرة لا تتوقف أبدا الى أن تقوم الساعة نعرض بعضها وفيه الوفاء بباقيها .

١ — أن يوقن كل من انحاز الى حظيرة الدين بجد واخلاص أنه لا حرج اطلاقا فى العمل بأحكامه والدعوة اليها والدفاع عنها لانه مأمور بذلك من الله سبحانه وتعالى ، وحرى بأمر صدر من الخالق أن يجد طريقه الى واقع الحياة ولو أسخط جميع الخلائق دون خشية من وعيد أو رهبة من تهديد وقد قص الله علينا من أمور الرسل والانبياء وضرورة التأسى بهم فى تبليغ الدعوة الى الله الشىء الكثير فقال تعالى :

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا : سورة الاحزاب آية ٣٩ .

وهذا دستور واضح لكل من أراد أن يتصدى للدعوة الى الله يبلغها ويعمل من أجلها ويبذل كل شىء فى سبيلها ، لا يخاف أحدا سوى الله ، ولا تمنعه سطوة أحد عن ابلاغ رسالات الله ، وكفى بالله ناصرا ومعينا وهو أحق أن يخشى وأحق أن يطاع ، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز بطلب التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ، فى صبره ومصابرته ومجاهدته وهو على الطريق يحمل الى البشرية رسالة الحق والسلام فقال تعالى

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » سورة الاحزاب آية ٢١ .

٢ — واذا أدرك المسلمون أن اقامة النظام الاسلامى لن يكون الا على أيدى البشر وأنه لا حرج اطلاقا عليهم فى اقامة أحكام الدين أمرا من عند الله فان ذلك سيلقى عليهم بالتبعية قسطا كبيرا من التبعات والمسئوليات أدناها تحمل الشدائد والصعاب مهما عظمت والتصميم على

---

(١) النظريات السياسية الاسلامية . الطبعة الثالثة .

مواجهتها بشجاعة واصرار ، وفى هذا يسجل القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى مخاطبا المؤمنين :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب » سورة البقرة آية ٢١٤ .

كما نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد للمسلمين أن طريق الدعوة الى الله شاق ومرير قد يتجاوز ما تعارف عليه الناس من تضحيات ليتناول الحياة ، فتكون الدماء الزكية الطاهرة ، والنفوس المطمئنة هى الثمن الذى يدفع من أجل التمكين للدين ودفـع الاعـداء المعاندين المكابرين .

فعن خباب بن الأرت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ بالرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليمتن هذا الأمر حتى يسير الراعى من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعملون » (١) .

ولا شك أن ادراك هذه المعانى يعتبر من أرقى واجبات العبودية فى وقت غفل فيه المسمون عن طريقة التمكين للدين وادراك حقيقة اقامته فأصابهم ما أصابهم على أيديهم وأيدى أعدائهم المتربصين بهم .

---

(١) عمدة القارىء جـ ٢٤ ص ٩٩ .

الفصل الرابع

وُجُوبُ تَبليغ الدَّعْوَة

من الحقائق الثابتة للدين الاسلامى والتى سبق أن أشرنا اليها فى مواقف متفرقة وتعتبر فريضة على كل مسلم انحاز الى حظيرة الدين أن يعيها ولا يغفل عنها أبدا نسوق الحقائق التالية :

أولا : أن الاسلام لم يأت بما أتى به من أحكام أحل بها وحرم وأباح وحظر واستحب وكره ورغب ونفر وحبب وبغض ونهى وأمر الا من أجل تحقيق مصالح البشر وسعادتهم الدينية والدنيوية دون أن يختص بأحكامه شعبا من الشعوب ولا أمة من الامم ولا جنسا من الاجناس ولا قبيل دون قبيل ولا لونا من الالوان ، ولا وطنا من الاوطان ، وانما هو رسالة البشرية كلها أحمرها وأسودها ، قاصيها ودانيها ، شرقيها وغربيها • وهو بهذه المثابة ليس برنامجا اصلاحيا ولا دعوة الى الاخلاق والفضيلة ، ولا شعارا رفع ثم نكست أعلامه ، وانما هو نظام كامل للدين والدنيا ، تساس الدنيا بأحكامه فى الدماء والاعراض والانفس والاموال فى الاخلاق والعبادات ، فى الحكم والمعاملات ، فى الاسرة والمجتمع ، بين الفرد والدولة ، وبين أمم الأرض وشعوبها والامم الاسلامية ، فهو خطاب موجه الى النفس البشرية والضمير الانسانى فى كل مكان •

ثانيا : وعلى ذلك فهو ثورة دائمة مستمرة لا يكفى الله من المسلمين أن يحققوه فى أنفسهم ، بل يطلب اليهم فى كل مكان وفى كل زمان أن يدعو البشرية كلها بقبائلها وشعوبها الى اعتناقه ، وأن يقاتلوا كل من يقف فى سبيل الدعوة اليه أو الحيلولة دون اسماع البشرية صوت السماء من العواهل المتحكمين فى رقاب العباد ، أو تجار الفلسفات المخرفة والعقائد الواهية وبقايا الديانات المخرفة ، كما هم مطالبون بقتال كل

من يدخل على الدين ما ليس منه من أبنائه المارقين الذين أصبحوا عونا للزمان على الاسلام والمسلمين •

وعلى هذا فالاسلام واجب التبليغ بأحكامه حتما وواجب الاقامة قطعا وهذا ما قطع به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته : المائدة ٦٧

وقوله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » سورة المائدة ٣

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن الدعوة الى الاسلام لم تجد طريقها الى واقع الحياة الا فى فترة النبوة والخلافة ، تحولت بعدها حياة المسلمين من الدين الى الدنيا ، نازعوا أهل الدنيا دنياهم فلا دنيا أصابوا ولا دينا أبقوا وظل المد الاسلامى ينحسر رويدا رويدا ، والمسلمون عن حقائق دينهم غافلون الى أن أصابهم ما أصابهم على أيديهم أولا وعلى أيدى أعدائهم المتربصين بهم ثانيا ، فتخلوا عن قيادة العالم ، ليتسلم الزمام والقياد غيرهم ، وليصبح المسلمون ضحية لانظمة لا تمت بصلة الى اسلامهم ولا ترتبط بماضيهم وأمجادهم وتراثهم ، ولا يملكون القدرة على مخالفة من يتحكمون فيهم ويملكون السيادة عليهم وظلت ناصيتهم بأيدى غيرهم الدخلاء عليهم وقد ترتب على ذلك فى ظل قرون من الاستعمار أن أصابهم من رزايا غيرهم من الامم مالا يجبره سرور الدهر كله وكان أظهر ما انطبع به واقع المسلمين :

أولا : الكسل العقلى والجسمانى والتراخى فى الدعوة الى الله وكأنها نافلة من النوافل جوز الشارع الحكيم اتيانها ولم يفرضها عليهم سواء أكانت الدعوة موجهة من الامة المحمدية الى غيرها من أمم الارض وشعوبها ، وسواء أكانت الدعوة الى الله من خواص المسلمين العارفين بأمور الدين وأسرار التشريع الى غيرهم من أصحاب الايمان الشعبى الساذج •

ثانيا : وثانى ما انطبع به واقع المسلمين بطلان الحاسة والعاطفة الدينية التى كانت تميز المسلمين عن غيرهم وكانت المحرك الى تأكيد وجودهم وانقيادهم للحق والشرع ورفضهم للذلة والهوان فى الارض ، كما كانت الوازع الى الحمية والدافع والغيرة الى التخلى عن كل ما لا يمت الى الاسلام بصلة مهما كان بريقه ومهما كانت جاذبيته ماديا كان أو معنويا • كما كانت المشعل الذى أضاء للمسلمين ما أظلم من حياتهم ، فيها كانوا يتراحمون ، وينتصفون من أنفسهم انتصافهم من غيرهم ، ومن أجلهـا كانوا يتآخون يسعى بذمتهم ادناهم وهم يـد على من سواهم • فلما خبت العاطفة الدينية تم نشر جناح من التقاطع وضار الخلائق عزين فى كل واد من العصبية يهيمون ، فتنازعوا أمرهم بينهم كل حزب بما لديهم فرحون ، فسهل على غيرهم انتزاع الزمام والقياد منهم ، وساموهم الخسف والهوان والمرارة والحرمان من العودة الى ماضيهم وتلمس الطريق الى سابق عزهم ومجدهم •

ثالثا : وثالث ما أصاب المسلمين طغيان المادية والمصالح الدنيـوية الجامحة الغلابة ، يجمعون الاموال من كل طريق ويلتمسون الحصـول عليها من كل خبيث من الاعمال ، وينفقونها على متاع الحياة الزائل دون تمييز بين الحلال والحرام ودون ادراك لحقوق أوجبها الله فى أموالهم فريضة من عنده ، كما شغلتهم المناصب والولايات يتجبرون تحت سلطانها ويسومون الناس الذلة والخسف والهوان تحت لوائهـا دون اعتبار لما يفرضه الدين أو تمليه المصلحة العليا لجماعة المسلمين •

رابعا : ومن أبرز ما أصاب النظام الاجتماعى وهو ما يعبر عنه بنمط العلاقات التى تمت ، أن حدثت فجوات عميقة وخلخلة فى هذا النظام كان أبرزها الاستغناء عن الاخاء الاسلامى والتخلى عن الروابط المنزلية والارحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية مما أفقد الاسرة تماسكها وانسجامها ، وجعل من المصالح الاقتصادية مركز التجمع والالتقاء عند تواجدها وتفرقها عن افتقادها •

خامسا : وخامس ما أصاب المسلمين هو الانحـطاط فى الاخـلاق والاجتماع نتيجة وقوعهم تحت سلطان غيرهم ، ابتعدت بسببه الامم الاسلامية عن ضميرها فى التشريع والعبـادات والمعـاملات والسنن

والتوجيهات والاحكام والاخلاق وما أدى اليه ذلك من فرقة واختلاف فاختلفت الوجهات وأصبح لكل وجهة هـو موليهـا • وأصيبت الدول الاسلامية بأداء خلقية واجتماعية كانت من أهم أسباب انهيار الدول الاسلامية ، زادتها الايام عمقا بسبب التأثير المستمر فى عقلية المسلمين ونفسيتهم وتمويه الحقائق بمقدرة المستعمرين الذين يكيدون للاسلام والمسلمين وبمعونة أبناء الاسلام أنفسهم حتى أصبحوا عونا للمستعمرين عن الاسـلام والمسلمين • وبذلـك توقفت الدعوة الى الله بمفهومها الحقيقى توقفا يكاد يكون تاما ولكن رغم ذلك فان هناك حقائق لا يمكن انكارها أو التنكر لها نوجزها فيما يلى

أولا : انه رغم ما أصاب المسلمين من محن ومصائب وما حل بهم من ضعف وهوان ، سواء ما كان منها راجعا الى كسبهم وابتداعهم ، وما كان منها راجعا الى غيرهم الطامعين فيهم ، والمتربصين باسلامهم ، فانهم لازالوا أطوع أمم الارض وأكثرهم انقيادا للحق ، وأشدهم استمساكا بالاخلاق والفضائل وأكثرهم ادراكا لامانة هداية البشرية واستشعارا لمعنى الانسانية فهم بلا شك أمنة للبشرية حتى فى فترات غفواتهم واضمحلالهم ، وعصمة لها من التداعى والانهيار •

ثانيا : أن المسلمين لا زالوا يملأون بقاع الأرض شرقيها وغربيهـا قاصيها ودانيها ، ويساهمون فى صنع التاريخ أفرادا وجماعات ، وأن البشرية بأنظمتها المختلفة رغم ما أحرزته من نجاح مادى واتساع عمرانى وتقدم علمى أحوج ما تكون الى قيم روحية وأخلاقية تهذب من ديانتها المادية وتزدها عن الاسترسال فى شهواتها ومطامعها ، وتشعرها بمعانى الانسانية التى يجب أن تسود العلاقات بين الشعوب والامم ، وتتخلى بها عن طبائع القهر والاستبداد التى أصبحت السمعة البارزة فى التعامل بين الامم والشعوب وفى العلاقات بين القوى المتصارعة على مستوى الأفراد وعلى مستوى الطبقات وعلى مستوى الحكومات ، على مستوى الأنظمة المتصارعة والمتطاحنة التى تقتسم البشرية وتدعى كل منها أن الحق معها وأنها الخليقة بالامامة والسيادة وحق توجيه البشرية الى الوجهة التى يرضاها كل نظام •

ولن يكون الترياق الذى تداوى به أمم الارض عللها وأسقامها الا فى الاسلام باعتباره النظام الربانى الذى يجرى فى كل ما جاء به على توازن

يرعى مصلحة الجسد وأشواق الروح ويحمى النفس البشرية من مطامعها وشهواتها ويؤكد سلطان الضمير كرقابة داخلية فعالة تلحق كل تصرفات الانسان وفق دستوز واضح من التبعات والمسئوليات ، ويتعامل المسلمون فى ظله على أساس الاخاء الاسلامى المؤزر بمنطق العقائد ، ويتعاملون مع غيرهم من أمم الارض وشعوبها على أساس الاخاء الانسانى لانهم يؤمنون بأن التعارف بين الناس هو الحكمة الالهية من خلق الشعوب والقبائل واختلاف الاجناس والالوان .

واذا كانت البشرية بأنظمتها المختلفة قد أمعنت فى المــــادية ، واستهانت بالمثل الخلقية والفضائل النفسية ونسيت مقاصد الحياة كجسر موصل الى الآخرة ومعبرة اليها ، فاستهانت بها وأصبحت لا تؤمن الا باللذة والمنفعــة المادية ، وفى الحياة السياسية لا تؤمن الا بالقــوة والغلبــة ، وفى الحياة الاجتمــاعية لا تدين الا بالوطنية المعتــدية والجنسية الغاشمة ، حتى أصبحت الحياة على وجه الارض جحيما لا يطاق ، كما أصبحت أمم الارض وشعوبها لا يملكون من أمرهم شيئا ، بسبب التطاحن والتناحر والفوضى الاجتماعية والانحطاط الخلقى والقلق الاقتصادى والافلاس الروحى . لذلك فلا بديل عن الاسلام لانتشال البشرية من الوهدة التى تردت فيها ، باعتباره موئل الانسانية وأملها الباقى بعد أن عاشت أزمانا فى ظل أنظمة مختلفة تعاورت عليها لم تجد فى ظلها الامن والطمأنينة والسلام . فالاسلام بلاشك هو نور الحرية الوضاء فى عالم يسوده الظلام الدامس ومن هنا وجبت الدعوة اليه لتغيير الاساس الفاسد للمجتمعات البشرية ، والاخذ بيدها لتستقيم على الطريق ، وتستأنف السعى من جديد نحــو الادراك الحق لواجبــات العبودية لله فى الارض وتحقيق مقاصد الحياة باعتبارها الفرصة النادرة التى تفضل الله بها على عباده من لم يغتنمها ويحقق المقصد منها فقد خسر خسرانا مبينا وخرج منها بصفقة المغبون .

والدعوة الى الله ووجوبها فضلا عن انها التزام قائم ومستمر ، فانها اليوم والعالم كله يقف على مفترق طريق وعرة شائكة أحوج ما يكون الى الاسلام لرده عن غيه وحماية البشرية كلها من أخطار تتهددها وتوشك أن تقضى على تراثها وما يتبعه من شقاء دائم ، وصدق الله تعالى :

« ألا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير : سورة الانفال

والدعوة الى الله على ثلاثة أنواع :

النوع الاول :

دعوة الامة الاسلامية جميع الامم الى الاسـلام باعتبـارها الامة الامينة على مواريث النبوة النابعة من السماء ، وهذا واجب هذه الامة بوصفها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، وبحكم وصف المؤمنين الذين أذن الله لهم بالقتال فى قوله تعالى :

« الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » سورة الحج .

فالواجب دعوة الناس الى الاسلام فان هم أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بتعليمهم فرائض الاسلام وحدوده وتوجيهاته وأوامره ونواهيه الى غير ذلك مما دعا اليه الاسلام .

وهذا الواجب يقع بالدرجة الاولى على عاتق الامم الاسلامية وتنعقد بسببه مسئولية كل دولة من دول الاسلام . وفى سابق ما جرى عليه واقع المسلمين فى الصدر الاول تبيان لما ينبغى على الدول الاسلامية أن تفعله فقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة الاسلام فى طريقة نشر الدعوة فقد أرسل الرسل الى الملوك والامراء وأمرهم أن يبلغوا شعوبهم بطبيعة الرسالة التى كلفه الله بنقل أحكامها الى البشرية كلها نسوق بعضا منها كوثائق دستورية بالغة الاهمية ، تذكيرا بأن الدعوة الى الله كما جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم مكانها الارض بأسرها وزمانها للاجيال كلها الى أن تقوم الساعة ، وأن الشريعـة الاسلامية هى الشريعة الخاتمة ، وأنه لا نبى بعد نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، وهذا يلقى تبعات جسام ومسئوليات ضخمة على الدول الاسلامية من أجل تبليغ أحكام الاسلام الى أمم الارض وشعوبها .

كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أمـا بعد فانى أدعـوك بدعـاية الاسلام ، أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فان توليت فان عليك اثم الاريسيين ، « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سـواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا أحدا من قومه نسأله عنه ــ وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة ــ فجاءت رسل قيصر لابى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب . ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا ــ لانه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره ــ فقال قيصر : ادن منى ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه : قل لاصحابه انما قدمت هذا أمامكم لاسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وقد جعلتكم خلفه كى لا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ، ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال لا : قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . قال ، هل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون . قال : هل يرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال لا ، قال : هل يغدر اذا عاهد ؟ قال لا ، ونحن الان منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قال نعم ، فكيف حربكم وحـربه ؟ قال الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا . قال فبم يأمركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ونهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الامانة ، فقال الملك : انى سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومهـا ، وسألتك هـل قال أحـد منكم هـذا القول قبلـه فذكرت

أن لا ، فقلت لو كان أحـــد قال هـــذا القول قبله لقلت رجـــل يأتسى بقول قيل قبـــله • وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـــول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله • وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، فقلت لو كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا فقلت لو كان من آبائه ملك لقلت رجـــل يطلب ملك أبيه وسألتك اشراف الناس يتبعـــونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل • وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم ســـخط لدينه فقلت لا وكذلك الايمـــان حين تخالط بشاشـــته القلوب ، وســـألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وأن الحـــرب بينكم وبينه ســـجال وكذلك الرســـل تبتلى ثم تكون لهم العاقبـــة وسألتك بماذا يأمركم ، فذكرت بماذا يأمركم ، فذكرت أنه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الاوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الامانة وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أنه لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبى ، وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه منكم ، وان كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ولو أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه • قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم ، فلا أدرى ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الاصفر فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الاسلام • ولما سار قيصر الى حمص مع عظماء الروم فى قصر له فيهـــا ، وأمر بالابواب فأغلقت ، ثم أطل عليهـــم فقال : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى • فحاصوا (نفروا) حيصة حمر الوحش الى الابواب : فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم ويئس من الايمان قال ردوهم على ، فقال لهم انى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان هذا آخر شأن هرقل غلبه حب الملك على الاسلام فذهب باثمه واثم رعيته ••••

كتابه صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ملك الحبشة

وكتب الى النجاشى : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح له وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى .

وقد كتب النجاشى الى النبى صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه مصدقا لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند الله .

وكتب صلى الله عليه وسلم الى كسرى ملك الفرس ، وكتب الى المقوقس أمير مصر ، وكتب الى المنذر ابن ساوى ملك البحرين ، والى ملكى عمان ، والى ملك اليمامة ، وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل الى اليمن : داعين الى الاسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال الى غير ذلك من رسل بعثهم صلى الله عليه وسلم للدعوة الى الاسلام الى أن لحق بالرفيق الاعلى ، بعد أن استنفذ كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة وابلاغها الى أمم الارض وشعوبها ، فمن دعوة الى الله فى المجامع والاسواق ، الى ارسال المكاتبات للملوك والرؤساء وهذا ما سلكه أصحابه من بعده تأسيا به وسيرا على نهجه .

وهذا ما يؤكد ما سبق أن ذكرناه أن رسالة الاسلام هى للبشرية جمعاء وأن الشريعة الاسلامية هى الشريعة الخاتمة ، ومن هنا استوجبت أحكامها أن تكون حاكمة لا محكوما عليها ، وأن يكون لها السيادة على كل ما عداها من أنظمة جاد بها الفكر البشرى أو يجود بها عبر القرون والاجيال .

وعلى ذلك فمسئولية الدول الاسلامية تظل قائمة الى أن يرث الله الارض ومن عليها تدعو للاسلام وتعمل على اسماع أمم الارض وشعوبها

صوت السماء ، وتقاتل العواهل المتحكمين فى رقاب العباد ان هم حالوا دون أسماع الامم والشعوب رسالة الاسلام ووقفوا فى طريق الدعوة الى الله .

ونود الاشارة الى الحقائق الآتية نشد الانتباه اليها ونضعها أمام كل من يتصدى للدعوة الى الاسلام على المستوى العالمى وعلى المستوى المحلى كما يجب أن يستوحيها كل مسلم ، ويتطلع اليها كل مفكر ، ويتكىء عليها كل فقيه ، ويترسم خطاها كل سياسى ، ويمعن فى تأكيدها كل كاتب ، ويزيد فى تأصلها كل فيلسوف ، ويرعاها كل من يريد الدعوة الى الإسلام ويبنى قواعد النظام على أساس ما جاء به من أحكام :

الحقيقة الاولى :

أنه ما قام دين من الاديان ولا انتشر مذهب من المذاهب ولا ثبت مبدأ من المبادىء الا بالدعوة . وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ولا دريست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد أحكامها الا بترك الدعوة . فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى اليه الامم والشعوب سواء أكان ذلك الامر حقا أم باطلا . ولقد علمنا التاريخ أنه ما قام أحد يدعو الى شىء الا وجد له أنصارا وأتباعا — وها نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة والمذاهب الحقة باهمال الدعوة تتضاءل — ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته ، لانه الحق، لما فرضت علينا الدعوة اليه ، ولما كان ثم حاجة الى الانبياء والمرسلين ، وورثتهم من العلماء العاملين والمرشدين الناصحين الداعين الى الهدى ودين الحق ولما وصف الله عز وجل الدعوة اليه بأنها أحسن القول [1] .

وما يجرى الان على المستوى العالمى حيث يقتسم البشرية نظامان اجتماعيان يختلفان كل الاختلاف عن بعضهما خير شاهد على أهمية الدعوة للنظام من أجل أن يتمكن وتسود أحكامه . وكلا النظامين لا يستند الا الى شرع عقلى جاد به الفكر البشرى . ويعمل كل نظام منهما ما وسعته الطاقة والمقدرة داخل حدوده وخارجها على التمكين

---

(1) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ الطبعة الخامسة ص ١٤ .

لمبادئه عن طريق الدعوة المستمرة التى لا تتوقف ولا تلين ، يســاندها ما تملكه دول كل من النظامين من طاقات اقتصادية واجتماعية وسياسية •

أما عن مواريث النظامين خارج حدودها فقد لاقت دول ليست لها أية مصــالح فى الانتمــاء الى أى من معسـكرى النظامين كثيرا من الاذى ، وكل نظام متمنع مترفع فى حصونه لا ينظر الى أبناء الجنس البشرى الا بعين التحزب والتشيع والتعصب لمبادئه ، ولا تملك شعوب الارض قاطبة حتى الان أية ضمانة تحميها من عدوان تشنه عليها أية دولة من دول النظامين مستترا كان أو سافرا نتيجة لاندفاع كل نظام لتأمين مبادئه ضد خطر مؤكد أو محتمل قد تلوح له بوادره من النظام الاخر •

وتحت شعار الدعوة الى مجتمع يسوده السلام ينادى أنصار كل من النظامين ، نرى احتشادات ضخمة للقوى البشرية والعسكرية وتجنيدا للموارد الاقتصادية وحصرا للقوى السياسية وجمعا للسلطة وتركيزها فى أيدى حكومات القوة التى تتولى الامور فى دول النظامين ، يتوج ذلك تحالفات سياسية واقتصادية وعسكرية تنضوى تحت لوائها دول كل من النظامين ، وتستهوى للانضمام اليها دولا أخرى ليست لها أية مصالح فى الانتماء لهذا النظام أو ذلك الامر الذى وضع البشرية كلها على حافة حرب مدمرة يكفى لهياج نيرانها خطأ ربما لم يكن فى الحسبان •

واذا كان هذا شأن الانظمة البشرية على ما فيها من نقص وقصور لانه ليس من شأنها الوقوف على حقائق الامور لانها من صنع العقول البشرية التى لا تستطيع ان ستقل بادراك المصالح الدنيوية فضلا عن الاخروية ، ولا تستطيع أن تدير أمورها على نظام محكم عادل لانها قد تميل عن الحق الى الباطل وتنحرف عن الصلاح الى الفساد ويخفى عليها وجه المصلحة ، لاختلاف المدارك والمشارب فى أصل الفطرة والجبلة ، فترى انسانا يستحسن عين ما يستقبحه غيره ، بل الانسان الواحد قد يظهر له الشىء حسنا فى وقت ، ويظهر له نفس الشىء سيئا فى وقت آخر ، فاذا كانت العقول البشرية قاصرة على ادراك مصالحها فى هذه الحياة وعاجزة عن الاطلاع على الحقائق وكانت عرضةلتغلب الاهواء والشهوات وكان من طبائعها اختلاف المدارك والميول •• نقول اذا كان

هذا شأن الانظمة البشرية التى يجود بها الفكر البشرى ، فان النظام الاسلامى وهو من صنع الله المتصف بكل صفات الكمال فيكون هو الآخر كاملا لاحاطته بوجود المصالح فى العاجل والآجل ، ومن ثم كان أولى بالسيادة والامامة وأحرى أن يدعى اليه ويقاتل من أجل التمكين له مهما كلف من ثمن وتطلب من تضحيات وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبراهينه ، ويمكن لدينه فى الارض ولا حجة للمسلمين ان هم تقاعسوا عن نصرة دينهم ، ولا عذر لهم عند الله ان تخلفوا عن الدعوة الى اسلامهم او قصروا فى نشر رسالة الحق والحرية والسلام التى جاء بها الاسلام •

الحقيقة الثانية :

ان البشرية كلها تعيش أحلك أيام حياتهـا حائرة فى بيداء المهالك والضلالات رغم ما أحرزته من تقدم علمى واتساع عمرانى ، الا أنها تحمل قلوبا ماتت فى صدور أصحابها وهى فى أمس الحاجة الى شحنات روحية وأخلاقية تردها عن الاسترسال فى ماديات الحياة ، وتنقذها من شهواتها الجامحة الغلابة ، ولن تلبث ان هى أصابها الروح الاسلامى ووقفت على حقيقة الاسلام وما يدعو اليه ، أن تعود الى صوابها ويعود اليها اطمئنانها وثقتها بنفسها وستكون رسالة الاسلام هى الرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال وتجنبه ما يتهدده من مصائب واخطار •

واذا رجعنا الى ماضى الاسلام وكيف انحاز الى حظيرته رجال كانوا من أشد الناس قسوة على الاسلام والمسلمين ، فانقلبوا سيوفا سلها الله على المشركين وتحقق على أيديهم ماأصبح حديث الاجيال ، فهذا خالد بن الوليد المقاتل وقائد الجند القوى فى الجاهلية ومن أشد الناس كيدا للمسلمين ، ينقلب بعد اسلامه سيفا سلطه الله على أعداء المسلمين ، وهذا عمر بن الخطاب شأنه معروف قبل الاسلام يتحول بعد اسلامه رمزا للعدالة فى تاريخ الانسانية بعد الانبياء والرسل ، وهاهى هند آكلة الاكباد تذعن لدعوة الاسلام ، ووحشى قاتل حمزة سيد الشهداء ، يسلم فيقتل مسيلمة الكذاب شر الناس ، وها هو النجاشى ملك الحبشة ما ان يسمع من الوفد المسلم ما يدعو اليه الاسلام حين يذعن للاسلام وتسيل دموعه على خدمه ويعلن أن ما يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم هو

والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . وغير ذلك الكثير مما يحفظه لنا التاريخ ويعيه ، وكل ذلك راجع الى أن الاسلام هو دين الفطرة يبعث فى الانسان احساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، وروح الاطمئنان فى غير تواكل ، ويقود الانسان الى الطريق الوسط الاعدل حيث اتخذ فى كل ما جاء به مسلكا وسطا غاية فى الاعتدال فهو كمال للفرد وألفة فى البيت ونظام للملك ، ولم يترك ناحية من النواحى التى فيها صلاح الانسان وأمنه الا وانعطف اليها يرسى أصولها ويضع لها من الضمانات ما يكفل تحقيقها والحفاظ عليها وهذا غاية ما يتمناه الانسان ، من ملة لا تفضلها ملة فى شمول حقائقها وأحكامها ، وخلوص عباداتها وشعائرها من شوائب الملل السابقة ، ولا تعوق الانسان عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة ، وتوحى الى المسلم عقيدة فى الذات الالهية وعقيدة فى الهداية النبوية وعقيدة فى الانسان لا تعلوها عقيدة .

وهذه الحقيقة أكبر دافع للمسلمين ودول الاسلام على الدعوة اليه ونقل أحكامه على البشرية باعتباره نور الحرية الوضاء فى عالم يسوده الظلام الدامس وعندئذ يكون المسلم قد وفى بأمانة الشكر والعرفان بالجميل لله ، ولن ينسى اذا عاش فى ظل نظام اسلامى أنه مدين لهذا الدين بوجوده الروحى ووجوده المادى ، وسيذكر ذلك عندما يعرض على الله يوم الحساب وينجو بسابق ما قدمه لمولاه ولنفسه وللبشرية وللناس فى الدنيا على أساس ما لكل من حقوق اوجبها الشرع وفرضها الدين .

وما أجمل ما قاله عمر بن الخطاب لابى عبيدة بن الجراح :

« انكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالاسلام ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله » (١) .

النوع الثانى :

والنوع الثانى من الدعوة الى الله دعوة المسلمين بعضهم بعضا الى الخير وأمرهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ، ويقوم بهذا النوع خواص

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٠ .

الامة العارفون بأمور الدين وأسرار التشريع وهم المشار اليهم بقوله تعالى :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » سورة التوبة •

وهذا الواجب يلقى تبعات جسيمة ومسئوليات خطيرة على العلماء باعتبارهم أقرب الناس الى منابع النور وأعرفهم بكتاب الله وسنة نبيه فهم بلا شك أمنة للامة الاسلامية وعصمة لها من التحلل والضياع فهم خلفاء الانبياء فى احياء القلوب الميتة وانارة النفوس المظلمة فكما ان الملوك خلفاء الانبياء فى عالم الاجساد فالعلماء خلفاء الانبياء فى عالم الارواح •

وقد سبق أن أشرنا عند الحديث عن مسئولية القيـــام بواجبـــات العبودية الى الدور الذى يمكن أن يؤديه العلماء اقامة للدين والامر بكل معروف ظهر تركه والنهى عن كل منكر ظهر فعله ، والدعوة الى طاعة الله وتوحيده وارشاد الخلق الى الصراط الســوى بتصحيح العقـــائد واستقامة الاعمال وتهذيب النفوس وتوثيق عرى الوحدة والاخاء بين المسلمين ورفع أسباب الفرقة والتنازع بينهم ، ومقاومة العقائد الواهية والفلسفات المخرفة ودفع الشبهات عن الدين •

ونكتفى هنا بكلمة عن واجب العلماء ننقلها عن أحد أعضاء هيئة كبار العلماء حيث يقول :

لا يظلم السادة العلماء من يقول لهم : أنتم ورثة الانبياء فى العلم والحكمة ، وخلف لهم فى وظيفتهم ، وما كان من طريقتهم أن ينزووا فى مساجدهم ، ويلزموا أماكنهم ويلزموا الناس أن يقبلوا عليهم بل كانوا يتعرضون لهم ويسعون وراءهم يدعونهم الى الخير ، ويرشدونهم الى طرق الهدى والرشد بالجد والجهد بل جرت سنة الانبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وان كان محفوفا بالمكاره والمخاوف ، وكم قتل فى سبيل ذلك منهم نبى وصديق ، فكانوا أفضل الشهداء • روى أبو داود فى سننه عن أبى سعيد مرفوعا « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير

جائر » • وقد ورد أن علماء السلف تصدروا لنصيحة الملوك والامراء الظالمين •

لا يظلم العلماء من يقول لهم قوموا بواجبكم وأدوا الامانة التى فى أعناقكم الى أهلها ، بعد ايمانكم بقول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وبعد قول الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) • وبعد قول امام المرشدين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله آن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) • وبعد قول سيد الداعين الى الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا) ، وبعد قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : ما آتى الله تعالى عالما علما الا أخذ عليه الميثاق لا يكتمه • وقوله كرم الله وجهه : ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا •

لا يمس كرامة السادة العلماء من يصوب نحوهم سهام اللوم فى تخليهم عن ارشاد الامة حتى غلبهم عليه الدخلاء ، وبرز فيه الادعياء ، ممن لا يحسنون تهذيب الاخلاق ، وتثقيف العقول ، وهداية الناس ••

لا يمس كرامة العلماء من يقول لهم : أنتم رعاة الامة فى تصحيح عقائدها وصيانة دينها وكل راع مسئول عن رعيته •

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة

ونـام عنها تولى رعيها الاسد

أجل فقد تصدر لقيادة الجمهور غير الاكفاء أولوا الاهواء ، وتمادوا فى باطلهم حين تخلى رجال الدين عن واجبهم ، وتنحوا عن وظيفتهم ، فكانت العاقبة ما ترى مما يحتاج الى أزمنة ، وجهود عظيمة ، يقوم بها جمع عظيم من أولى الغيرة على الدين وذوى الشجاعة الى اعلاء كلمة الله والدعوة الى طاعة الله بعد احكام العدة والحصول على كامل الذخيرة والخبرة التامة بأساليب الاقناع ووسائل التأثير مع صدق النية

والاخـــــلاص فى العمل والتحلى بالرفـــق والتجمل باللين وســـعة الصدر (١) •

وقد أورد الشيخ على محفوظ ما يجب أن يكون عليه العالم وهو على الطريق يدعو الى الله نخص بالذكر بعضا منها علاوة على ما سبق أن أشرنا اليه فى مكانة من البحث عن مسئولية العلماء فى اقامة واجبات العبودية •

فقد أشار الى مجموعة من الصفات أظهرها :

اولا :

الشجاعة حتى لا يهاب أحدا فى الجهر بالحق ولا تأخذه فى نصرة الله لومة لائم ، ففى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم : وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ؟ اذا رأيت أمتى تهـــاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم ؟ وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مرا • وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه » قال : يرى أن لله عليه مقالا ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا وكذا : فيقول خشية الناس فيقول فاياى كنت أحق أن تخشى » •

فان كان العالم جبانا ضعيف القلب عجز عن الاخذ بناصر الحق وتغيير المنكر وتقرب الى الناس بأنواع المداهنة وتودد اليهم بضروب الملق ، وما هكذا تكون الاطباء ولا اللائق بقادة الامم •

ثانيا :

العفة واليأس مما فى أيدى الناس فمن يئس مما عند الناس استغنى

---

(١) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ٦٩ ــ ٧١ •

عنهم فيبقى سيدا محبوبا جليلا مهيبا ينتفع به ، أما ان كان غير عفيف وتطلع الى مافى أيدى الناس فقد باع دينه بدنياه وصار لديهم محقرا ممقوتا ثقلا مرزولا ، وهان عليه كل ما يلاقيه من أنواع الذلة والاهانة فى سبيل الحصول على ذلك الحطام الفانى ، وهذا بلا ريب هو السقوط الذى لا خلاص منه والفقر الذى لا غنى معه . فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله أوصنى وأوجز فقال : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس فانه الغنى ، واياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك وأنت مودع واياك وما يعتذر منه » . وقال أبو سعيد الحسن البصرى رحمه الله : لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع فى دينارهم فان فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه . وقال أعرابى لأهل البصرة : من سيدكم قالوا الحسن ، قال : بم سادكم ؟ قالوا احتاج الناس الى علمه واستغنى هو عن دينارهم .

وبالجملة فواجب الداعى نزاهة النفس عن شبه المكاسب ، والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب ، وما أحسن قول القائل :

— يقولون فيك انقباض وانما

رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم

ومن أكرمته عزة النفس أكرما

ولم أقض حق العلم ان كان كلما

بدا طمع صيرته لى سلما

اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى

ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهان ودنسوا

محياه بالاطماع حتى تجهما

ثالثا :

قوة الثقة بالله تعالى فى وعده وكمال الرجاء فى حصول الفائدة ، مهما طال به العلاج وعظمت المصائب ، فانه متى تمكن ذلك من نفسه انبعثت همته وقوى نشاطه ، وتنبه الى انتهاز كل فرصة بما يناسبها

موقنا بأنه مالا يظهره تأثيره اليــوم فغدا يظهر ، مؤمنا بأن الباطل زهوق ، ولابد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل ، فان دولة الباطل مؤقتة لاثبات لها فى ذاتها ، وانما بقاؤها فى نوم الحق عنها ، ودولة الحق هى الثابتة بذاتها فلا يغلب أنصاره ما داموا معتصمين به مجتمعين عليه • قال الامام على رضى الله عنه : لا قيام للباطل الا فى غفلة الحق •

واذ ننتهى من النوع الثانى من أنواع الدعوة الى الله وهو دعوة الخاصة من المسلمين غيرهم الى الله نود أن نختتم حديثنا عن هذا النوع بأنه من أخطر ما يمكن أن يقدمه العلمــاء على اختــلاف منــاهلهم ومشاربهم ، يناضلون عن دين الله ويدفعون الشبهة عنه بالبراهين ، فهم بلا شك جند الاسلام ، وحماة الدين ، والامنــاء على مــواريث النبوة النابعة من السماء وما أجلها أمانة ، وما أخطرها تبعة ومسئولية •

النوع الثالث :

والنوع الثالث من أنواع الدعوة الى الله هو دعوة المسلمين بعضهم بعضا وهم على طريق الحياة الى الخير ، ونهيهم عن الشر والتحذير منه كل مسلم بما يعرفه من أمور دينه قليلا كان أم كثيرا ، ولا شك أن مجال التواصى بالخير والتناهى عن الشر هو فى المعاملات اليومية المتكررة فى البيت فى المكتب فى الشارع فى المعهد وفى كل مكان يستطيع المسلم فيه أن يدل على خير أو ينهى عن شر •

فاذا رأى المسلم أخاه قد استهان بدينه فأهمل شعائره واستهان بتعاليمه وأخلاقياته ، بين له مدى عظم الجرم وقداحة الذنب ، التى يرتكبه بالتفريط فى واجبات الربوبية وحقوق وجبت عليه لله ، لا عذر له ان قصر فيها أو تكاسل عن القيام بها •

واذا رآه قد هانت عليه نفسه وتوارث نوازع العزة والكرامة خلف أهوائه وأغراضه وتطلعاته ، فامتدت يداه وعيناه الى غير ما أحل الله له من ماديات الحياة ومعنوياتها ، فاختلس مال غيره ، أو تطلع الى عورات الناس وحرماتهم ، بادر الى نصحه وتوجيهه وتحذيره من عاقبة الاعتداء على أموال الناس والتطلع الى أعراضهم وحرماتهم ، وتذكيره بقول الله تعالى :

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » سورة الاحزاب • آية ٥٨

كما يذكره بقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا »

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« يامعشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فان من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله »

وقوله عليه الصلاة والسلام :

« لما عرج بى عررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم »

واذا رأى الانسان أخاه وقد استمالته الفلسفات الارضية المخرقة والعقائد الواهية بدعاياتها العريضة ووسائلها الممعنة فى القسوة ، بين له عاقبة ذلك وأثره فى اضعاف وحدة المسلمين وتماسكهم وفرقتهم وانقسامهم بركونهم على غير عقيدتهم الاسلامية ، والتماسهم الشرف مما لا يمت بصلة الى تراثهم وأمجادهم ومافى ذلك من اخلال بالتبعة التى ألقاها الله على عاتق المسلمين بضرورة اقامة النظام الاسلامى والتمكين لاحكامه •

واذا رأى انسان اخوة له قد استحكمت بينهم العداوة والبغضاء ، وتمكنت أسباب التباعد والتنافر ، بين لهم طبيعة العلاقة التى تربط المؤمن وهى علاقة الاخاء المؤزر بمنطق العقائد المشدود بروح الاخلاص وأن المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه . والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل احداهما الاخرى . وأن يبذل جهده مااستطاع لاصلاح ذات البين ، وتقريب شقة الخلاف حتى يعود للاخاء قدسيته وجلاله •

واذا رأى الانسان أخته أو زوجته أو ابنته أو غيرهن ممن له عليهن ولاية التوجيه والارشاد وقد طرحن ثياب الحشمة ، وخلعن برقع الحياء

وبرزن فى الشوارع والطرقات عاريات كاسيات فى تبرج باسم الحرية ، وفى خلاعة باسم الرقى والمدنية ، بين لهن أن الحشمة والوقار وستر العورات هى مطالب اسلامية من شأن العفيفات الغافلات المؤمنات ، وما يليق بالمؤمنات أن تتركن آداب الدين وفضائله وتقلدن الأجنبيات دون وعى أو ادراك فى بدعهن السيئة وعاداتهن القبيحة ، فبهذا التقليد نندمج فى غـيرنا ، ونهدم بناء ديننا ، ونقضى على آدابنـا وقوميتنا وعاداتنا ونمحوا معالم حياتنا ، ونصبح أسرى لكل رخيص من عادات وتقاليد غيرنا .

واذا رأى مسلم غيور على دينه كاتبا من الكتاب من دعاة الحرية الشخصية المقوتة يكتب من الكتابات ما كان مثيرا للشهوات مستدرا للغرائز ، هاتكا لاستار الفضيلة محطما لاسوار الحياء ، بادر الى نصحه وسارع الى نهيه ، مبينا له عاقبة ذلك على النظام الاجتماعى ، وأثره الخطير على شباب المسلمين عماد أمل الامة الاسلامية وعماد نهضتها ورقيها ، وبنات المسلمين أمهات المستقبل .

هذه وتلك عينات من النوع الثالث من دعوة المسلمين بعضهم لبعض الى فعل الخير والترغيب فيه ومجانبة الشر والتحذير والتنفير منه ، وهذا النوع يدخل فى مجال التواصى بالحق والتواصى بالصبر الذى جعله الله عز وجل آية الايمان الصحيح وسببا للنجاة من الخسران المبين ، فقال تعالى :

« والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هذه الانواع الثلاثة للدعوة الى الله تمثل أرقى أنواع العبودية لله فى الارض ، وهى كفيلة لو قام المسلمون بها وتبنوها باعتبارها أرقى أصل من أصول الايمان وجوهر ماجاءت لاجله الاديان ، باعادة ما كان للاسلام والمسلمين من امامة وصدارة بالنسبة لامم الارض وشعوبها ، وعندئذ يكون المسلم قد وفى بأمانة الشكر والعرفان بالجميل لله ، ولن ينسى اذا عاش فى ظل نظام اسلامى أنه مدين لهـذا الدين بوجـوده الروحى ووجوده المادى ، وسيذكر ذلك عنـدما يعـرض على الله يوم الحساب وينجو بسابق ما قدمه لمولاه ولنفسه وللناس وللبشرية على أساس ما لكل من حقوق أوجبها الشرع وفرضها الدين .

الفصل الخامس

إحياء ما أماته المسلمون من سنة الجهاد

يمكن تعريف الجهاد بأنه : بذل ما فى الوسع فى سبيل الله تعالى وهو مقـــول على معنيين : الاول اعلاء كلمة الله تعـــالى ، والثانى الرباط لحفظ أمور المسلمين ودفع العدو عند هجومه على جماعة المسلمين ، قال تعالى :

« يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم» • سورة الصف •

وبعبارة أخرى : هو استفراغ ما فى الوسع لمحو ما لا يرضاه الله ورسوله ، ولا يرضاه العلماء الربانيون الراسخون فى العلم • (١) فالجهاد كمقرر من مقررات الدين انما شرع لدفع خطر العدو ، والعدو مأخوذ من كلمة « عدا : أى تجاوز الحد ، فكل من ظلم غيره بأن سلبه حقه أو أوقعه فى مضرة أو أعانه على ارتكاب ما يغضب الله أو سلط أو أعان عليه عدوا قويا ظالما ، أو دعاه الى عقوق أو قطيعة أو فعل منكر فهو عدو • يجب محاربته دفعا لعدوانه وردا لشره •

ولا شك أن الاعداء مختلفون منهم الملازم ومنهم المفارق ، وآخرون خارجون •

فالعدو الملازم هى نفس الانسان وهى أقسى الاعداء وأشدهم ضراوة وأكثرهم جلبا للرزايا والمصائب ، ان تمكنت من الانسان بشهواتها

---

(١) الجهاد . للامام محمد ماضى أبو العزايم . ص ١٨ •

وأهوائهـا ومطامعها أكـدت وأتعبت وأهـانت وأذلت وأجحـفت ، وان استطاع الانسان أن يكبح جماحها ويحملها على غير هواها ويملك زمامها ويصرفها عن غيها ومشتهاها عاش عيشة السعداء ورضى عنه رب الارض والسماء .

« ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » سورة الشمس : وكم أذل العدو الداخل نفسا عزيزة وأضاع مجدا تليدا ، وفرق مجتمعا فاضلا ، وقطع أرحاما موصولة ، كل ذلك لانه أطاع نفسه وهواه وأحب الاثرة بالمال والفوز بالملاذ والشهوات فكره من ينصحه وعادى من يشاركه ممن له حق عليه ، وصادق أعداءه . والفرد الواحد فى الحقيقة ونفس الامر هو مملكة عظيمة ، وكل مجتمع يمثل بالفرد الواحد . فاذا أطاع الفرد نفسه وهواه احتقر بعد التعظيم وامتهن بعد الاكرام .

فالنفس باعتبارها أعدى الاعداء ، تستطيع أن تجعل الانسان أشقى الاشقياء وأقرب شبها بالسوائم والعجماوات بلا شك أو امتراء ، هى ما تستحق المجاهدة ابتداء باعتبار مجاهدتها نقطة البدء من أجل مجتمع فاصل ، خال من الاحقاد والضغائن ، صاف من الاثرة والانانية ، تسيطر عليه طبائع الخير والبر والرحمة والوفاء ، وتتقلب النفوس فيه فى مراتب العزة والكرامة . وفى ظله تتحقق الالفة والتضامن والوحدة والتماسك .

لذلك اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجهاد الاكبر هو جهاد النفس والزامها كلمة التقوى ولن يتأتى ذلك الا اذا نكل الانسان عن عبادتها وتجانف عن الخضوع لها ، ورفض الاستجابة الى دعائها .

ومن بين الاعداء .. أعداء مفارقون « ويكونون من الزوجـة والاولاد ، قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لـكم فاحذروهم » بسورة التغابن . فان الزوجة قد يطيعها الانسان ، فيعق والديه ويترك أرحامه ، ويترك الفضائل ، اشتغالا بها ، ويرتكب الدنايا لجلب ما يرضيها ، ما لم يقف عند الحد الوسط ، وكذلك الاولاد فانهم

سبب فى البخل والجبن والفساد ، وقد يهمل تربيتهم الشرعية حبا فيهم فيكونون شروره فى الدنيا وعذابه فى الاخرة • وعداوة هؤلاء تكون بالفتنة ومنها حب الرجل زوجته وأولاده حبا يشغله عن شكر والديه المفروض عليه كما قال تعالى :

« أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » سورة لقمان •• أو يحبهم حبا يجعله يحرص على الدنيا فيطلبها من وجوهها وغير وجوهها ، ويبخل بالمال فيجعله يجبن عن قتال العدو حرصا على البقاء لتربية الاولاد والتمتع بالزوجة وقد تكون عدواتهم ظاهرة ، كفساد أخلاقهم بسوء تربية الوالد ، لان خير تربية الابناء قهرهم على التمسك بالدين فى الصغر ، ورعايته أخلاقهم من الطفولة ومجاهدة هذا العدو لا يقوم بها الا الافراد الذين جملهم الله تعالى بالشجاعة الدينية ، ومنحهم النفوس المؤثرة ، ولذلك قيل فى المثل : « الرجل يسوس مملكة بحكمته ويعجز عن سياسة زوجته ، وما ذلك الا لان للشهوة سلطانا قاهرا ، قال هارون الرشيد :

ملك الثلاث الغانيات عنانى
وحللن من قلبى بكل مكانى

مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى

ما ذاك الا ان سلطان الهوى
وبه قعنين اعز من سلطانى

فأكمل الحكماء حقا من جاهد نفسه وساس زوجته وأولاده ، والبيت الصغير مملكة كبيرة لان رئيسه ملك مطلق لا يتقيد بدستور وعلى مقدار تربية البنين الصغار تكون منزلة الامة بين العالم ، لان الامة تتكون من عائلات وعلى حسب آداب العائلات يكون شرف الامة أو ذلها ومتى كثر أهل الحق قهروا أهل الباطل وهى سنة العمران حتى مع النبى صلى الله عليه وسلم قال تعالى :

« يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » سورة الانفال .
وكل مجاهد معه الحق منصور وان كثر عدد عدوه وعدده [1] .

وهناك الاعداء الخارجون ويكون اما مظاهرا علينا ، أو مداهنا سياسيا والاول منهما أقل خطرا من الثانى ، لان العلانية فى ظلمة تبعث الهمم على دفعه وتنبه الى التحرز منه اتقاء خطره وكسرا لعداوته . أما الثانى من هذا الصنف فهو العدو حقا لخفاء حيلته ومكره لاظهاره غير ما يبطن واستتاره خلف حيله ومكائده .

هؤلاء هم الاعداء . وتلك هى صفاتهم وطبائعهم وهم ما طلب الاسلام الى أبنائه مجاهدتهم وتوقى شرورهم ومكائدهم .

فقد تبلغ النفس فى عداوتها للانسان حدا يبلغ به اللغز وهذا كان شأن المكذبين بالرسل المنصرفين عن دعوة السماء ، المتمسكين بما توارثوه عن الاجداد والآباء ، رغم ما جاء به الرسل من العلم والدليل وما أقاموه من الحجة والبرهان ، وهؤلاء مصيرهم الى النار ، ولا يذهبن بالانسان الاعتقاد الى أن بلوغ النفس بصاحبها مرتبة الكفر لا تكون الا فى عهد النبوات وأوقات الرسالات بل هى ماضية فى كل من يطاوع نفسه فيتنكر لدين الله أو يصد عن سبيله فى كل زمان ومكان أو يحول بين نقل دعوة السماء الى الناس أو تنفيرهم منها ، كل هؤلاء وأمثالهم وقد أردتهم نفوسهم وحملتهم على غير ما أمر به الله ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

وقد تجر النفس صاحبها الى فعل المحرمات بتزيين الشهوات له من البنين والنساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والحرث والانعام وبالجملة الى كل ما هو من متاع الحياة وليس له حق فيه ، فيعتدى على أعراض الناس وحرماتهم بغيا وظلمـا وعـدوانا فيستحق مقت الله وغضبه .

والنفس باعتبارها العدو الملازم للانسان الذى لا ينفك عنه أبدا ولا يفارقه هى أخطر الاعداء على الانسان وأشدهم ضراوة لانها دائما بالشر آمرة ، وطاعتها فيما ترنو اليه مما ليس لها حق فيه كفيـل باندراج الانسان فى عداد السوائم والعجماوات متى أطاعها فأحيا البدع وأمات

---

(1) الجهاد للامام محمد ماضى أبو العزائم ص ٢١ — ٢٣ .

السنن فلا يلبث الا وقد أضاع انسانيته وشرفه ودينه ودنياه كل ذلك بسبب العدو الملازم واهمال مجاهدته ومحاربته ٠

وما قيل بالنسبة للنفس يقال بالنسبة للزوجة والاولاد وان كان ضررهما أخف وطأة وأقل ضراوة من النفس لان الانسان اذا أوتى نفسا مطيعة لرشدها منتهية عن غيها يستطيع أن يحمل الزوجة والأولاد على مر الحق عن طريق القدوة أولا وعن طريق حق الرعاية والولاية ثانيا وعن طريق الفراق ان لم يفلح الاقتداء ولم يثمر الزجر والتأديب ٠

أما العدو الخارج فهو الذى يعنينا التعرض له بالحديث وقد احتل ديارنا وعطل اسلامنا لاسباب ترجع الى مكره وخداعه وكيده وبغضه للاسلام والمسلمين كما ترجع الى تقصيرنا وميلنا الى الدنيا وركوننا اليها ؛ نازعنا أهل الدنيا دنياهم فلا دينا أصبنا ولا دينا أبقينا ولا ربا أطعنا فكان من شأننا ما كان على النحو المعروف تاريخيا ولازلنا نعانيه حتى الان ؛ ولن يتغير حالنا ولن نسترد ملكنا العظيم من أيدى اعدائنا ومجدنا الاثيل من عند أخصامنا ٠ ونعيد عزتنا وكرامتنا الى شعوبنا وأممنا الاسلامية الا اذا فهمنا حقيقة اعدائنا الملازمين لنا والخارجين عنا ؛ وفهمنا الطريق الى استئصالهم والزامهم شريعة الحق والعدل ولن يكون ذلك الا بحد السيف نقطع به دابر كل كفار عنيد ، ونطارد به أعداء الله وأولياء الشيطان فى كل مكان نصرا لحجج الله وبراهينه وانتصارا لشريعته ، واعلاء لكلمته ، والا فبطن الارض خير لنا من ظهرها مع ما ينتظرنا من مقت الله وغضبه باعتبارنا الامة الاسلامية المسئولة عن مواريث النبوة النابعة من السماء والملزمـة بقيـادة البشرية الى حيث الامن والطمأنينة والسلام ٠

لذلك فان احياء ما أماته المسلمون من سنة الجهاد ابتداء من جهاد النفس الى جهاد من أذاقونا الخسف والهوان والذلة والمهانة على مدى قرون من الزمان يعتبر من أرقى واجبات العبودية لله فى الارض وأسمى ما يمكن تقديمه للاسلام فى هذا الوقت الذى أصاب المسلمين ما أصابهم من مصائب وبلايا ورزايا على النحو المعروف ، بما لا يحتاج الى جهد اضافى لبيان ما حل بهم وأصابهم ، فلا ريب أن يكون الجهاد فى هذا الوقت هو العبادة التى تنبىء بكمال الاخلاص لله تبارك وتعالى والتصديق بما بشر به من عز الدنيا وعز الآخرة ٠

والجهاد يعتبر من الفروض الكفائية أى أنه من الفروض التى يمكن أن تؤدى بأن يقوم بها البعض •

والغرض الكفائى متى شرع فيه صار فرض عين كالجهاد مثلا ، اذا اشترك المرء فيه وجب عليه أن يمضى فيه الى النهاية •

والحقيقة أنه يمكن الحكم — من ناحية الواقع والتاريخ — على الامة الاسلامية بأنها مقصرة فى أداء هذه الفروض العامة أو الكفائية مع انها تكون أصولا كبيرة فى الدين أو على الاقل لا تقدرها حق قدرها • ولاجدال فى أن هذا الاهمال أو التقصير — عن عجز أو قدرة — هو من أهم العوامل فيما منيت به من تأخر ، وما أدى الى تدهورها ، وتفكك الروابط بينها ،وضعف قواها من الناحيتين السياسية والاجتماعية • ويبقى — بعد هذا كله — أن الفــروض العــامة أو التضامنية ، من الوجهة العملية يتوقف عليها التمكن من أداء الفروض العينية (الفردية) فما لم يكن هناك دفاع وجهاد ، وما لم تظهر دولة اسلامية آمنة ذات سلطان ، وما لم يتحقق العدل بالقضاء وفق أحكام الشريعة الالهية ، وهكذا ، فان أداء الفرد للفرض العينى من عبادة أو زكاة ، أو نحو ذلك ، قد يصبح متعذرا ، بل ان حياة الفرد نفسه أو تمكنه من الحياة فى حرية قد لا تكون ممكنة ، وبقاء الدين نفسه يمكن أن يكون عرضة للخطر ، فالفروض الكفائية أو التضامنية لها اذن هذه الاهميــة العظمى فيما يتعلق بحياة الامة الاسلامية والدين [1] •

فالجهاد باعتباره من الفروض الكفائية وقد رأينا أهميتها يعتبر من أرقى تلك الفروض يتم به الدفاع عن الدولة والدين والوطن ، ويصان الاســتقلال ، وتحفظ الكرامة ، وتؤمن الحرية ، ثم هو السبيل الى مجاهدة الظلم وفك الاغلال عن الانسانية وازالة الحواجز التى تمنعها عن السعى فى طريق الرقى ، وهو فرض كفاية عند جمهرة المسلمين الا اذا غزيت أرض الاسلام ، فحينئذ يصبح فرض عين وهو عند « سعيد بن المسيب » فرض عين دائما (٢) •

---

(١) النظريات السياسية الاسلامية . دكتور محمد ضياء الدين الريس ص ٢٦٥ •

(٢) النظريات السياسية الاسلامية • دكتور محمد ضياء الدين الريس ص ٢٦٨ — ٢٦٩ •

وأنا أميل الى اعتبار الجهاد من الفروض العينية دائما وهذا ما مضى به الواقع العملى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حيث لم يرد راغبا فى جهاد وحريصا على ملاقاة الاعداء ، كما أن خطاب المشرع الحكيم للمؤمنين جاء يخاطب الجميع « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهـــدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله « سورة التوبة » • وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنســاء والولدان ، الذين يقولون ربنا أخرجنا من هـــذه القرية الظــالم أهلهــا : ســورة النساء • « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » سورة البقرة • « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » • سورة البقرة • « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويــكون الدين لله » سورة البقرة •

وفضلا عن ذلك فان الشريعة الاسلامية هى الشريعة الخاتمة فـــلا شريعة بعدها والمسلمون مأمورون بابلاغها ونقل أحكامها الى البشرية كلها وهذا يفرض تجنيد القوى لجميع المسلمين ، وحشدا لامكانياتهم المادية والمعنوية لتحقيق الاسلام فى أنفسهم ، واسماع الشعوب كلها والضمير البشرى والنفس الانسانية دعوة السماء فى كل مكان وفى كل وقت وزمان •

ومن هنا فأنا أعتبر الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة كما ذهب الى ذلك بعض فقهاء المسلمين • ولا حجة لمن قصر فى الجهاد بالنفس أو بالمال ، ولا عذر عند الله لمن لم يغزو أو يحدث نفسه بالغزو ، وللجهاد موجبات مقررة ، هى القتال للمعاملة بالمثل ، والقتال لدفع العدوان ، والقتال لكسر شوكة الكفر ، والقتال لمن أخرجونا من ديارنا وأموالنا ، ولمن يفتن المسلمين عن دينهم ، وشرع القتال أيضا من أجل المستضعفين ، وفى النهاية فقد أوجب الاسلام القتال وسل السيف من غمده حتى يكون الدين كله لله •

وهكذا شرع الاسلام الجهاد لا للغزو والفتح وقهر الشعوب وسلبها حقها فى الحرية والحياة بل شرعه وأوجبه باعتباره الضمانة الخـــالدة خلود الاسلام نفسه للحفاظ عليه كشريعة الهية من أن تمتد الى الارض التى يظلهـــا أية قوة من قـــوى الارض جميعهـــا تنال منه أو تنتقص منها ، كما شرعه الاسلام لقتال العواهل المتحكمين فى رقاب العباد

المسيطرين على مقدرات الامم والشعوب كلما وقفوا فى طريق الدعوة الى الله وتبليغ رسالته رحمة بالبشرية واستنقاذا لها من براثن الشرك والوثنية ، وفك أغلال الذل والعبودية التى يفرضها ساداتها وكبراؤها لتكون الوجهة خالصة لله ، وليقف الجميع فى مقام واحد هو مقام العبودية لخالق الارض والسماء فلا رب سواه ولا معبود الا اياه •

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين » سورة المائدة •

وعلى هذا فان الجهاد الذى شرعه الاسلام والسيف الذى أمر به الاسلام هو لنصرة دين الاسلام ، وأعدل السيوف ، سيف ينصر الله به حججه وبراهينه • وعلى سنة التلازم بين الاسلام والجهاد كان فهم المسلمين الاوائل لدينهم ، فاندفعوا لاقامته ، يجاهدون بأمـوالهم وأنفسهم ، ويقاتلون بكل ما وقع فى أيديهم ، مع وعد من الله قاطع أوجبه على نفسه بنصر من ينصره ، فكان الواحد منهم اذا طرقت سمعه صيحة من صيحات الجهاد ، سار الى الموت نشيطا ، باذلا فى رضا الله روحـه ، مشتاقا الى لقاء ربه ، مؤمنا بموعود الله له ، اما النصر ، واما الشهادة •

الغاية العظمى من الجهاد : تحقيق الرحمة •

بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وكان من الطبيعى ألا يجرى الله على يديه اهراقا للدماء ، ولا انتقاما من الاعداء ، بل كان طريقه كله وقد بعثه الله برسالة الرحمة أن يعمل على تقوية روابط المجتمع الانسانى وتأصيل روح الاخوة بين من يجمعهم أصل النشأة ووحدة المصير ، وتدبير شئون العالم وفن مقصد أخلاقى يفرضه سلطان الضمير على تصرفات الافراد والامم والشعوب ، بعيدا عن الانانية الفردية والمادية النفعية ، مع تذكير الضمير الانسانى والنفس البشرية بموعود الله لمن عمل على حظ غيره ونصيبه كما يعمل لحظ نفسه محافظا بذلك على حقوق الله وحقوق الناس فى دينهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم وأنفسهم وهذا ما تتحقق به الرحمة ويسود بتحقيقه الامن والطمأنينة والســلام ، ويتحقق بقيامه التآلف والتعــارف بين الامم

والشعوب بدلا من التناكر والتخالف . لهذا قال تعالى لنبيه وللبشرية كلها :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »

ومع ظهور الحجة ، واقامة الدليل ، وبيان سنن الله الفاعلة فى الكون وفى الناس ، ومناهج الله تعالى التى بها عز الدنيا وسعادة الآخرة ولكى يؤدى الرسول عليه الصلاة والسلام رسالة الرحمة كما أمره ربه ، آتاه الله صبرا على الايذاء وجلدا على المقاطعة والخصام ووسع الله فى رقعة حلمه ، وأمده بقوة من عنده ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولا لمن كفر عذر بعد الانبياء ، فبعث فى قومه يبشرهم برسالة الرحمة ، صابرا على أذاهم ، صامدا لاستهزائهم يرصد فيهم برق الامل ، ويشتم منهم بارق الايمان ، ولكن الكثير منهم من أصحاب المطامع والاهواء والاغراض ما ازدادوا على الايام الا عتوا ، وما بلغت دعوته منهم الا نفورا ، فعاد حبل الرجاء باليا ، ووجه الامل أسود كالحا ، ففزع الى الله شاكيا ملتجئا ، مستعينا مستهديا ، فى هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم ، ويكاد الامل ينقطع فى ايمانهم ، مع ما فى ذلك من تعطيل لرسالة الرحمة ، فأوحى الله اليه ، بسل السيف من غمده يقطع به دابر كل كفار عنيد ، ويطارد به العواهل المتحكمين فى رقاب العباد يسترد منهم ما اغتصبوه من حقوق الناس ، ويخلص المظلومين من ذل العبودية ومهانة الحرمان ، ولو أدى ذلك الى اهراق دماء الظلمة واراحة البشرية من بغيهم وفسادهم ، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك المواقف التى لم ينفع فيها دفء المناظرة ، فلم يبق الا حرارة السيف لتحقيق الرحمة العظمى للعالم أجمع ومن أجلها شرع الجهاد وحبب الله الى المؤمنين الصادقين القتال .

ولقد عاشت البشرية أجمل حياتها لفترة طويلة من الزمن ، تجنى ثمار الرحمة ، وتتقاسم خيراتها ، تستشرف قوة أكبر من الانسان وهى قوة الله القاهر فوق عباده ، ومتاعا أكبر من متاع الحياة الدنيا ، الى أن نسى المسلمون حقيقة الرسالة التى كلفهم بها الله ، وائتمنهم عليها ، وطريقة التمكين لها فضلوا السعى فى الطريق ، واشتبهت عليهم معالم الجهات ، فوقعوا فريسة فى أيدى أعدائهم فانتزعوا القيادة منهم ،

وأذاقوهم ما لم يمكن غفرانه ، ولا ينبغى لمسلم آمن حق الايمان أن ينساه ، وكان من نتيجة ذلك أن خرجت الالة الانسانية عن مدارها وأصبحت الدنيا كلها معقلا للمادية ، يسيطر عليها دخان كثيف من الاثرة والانانية ، لازالت الدنيا كلها حتى الان تعانيه ، رغم ما تتابع عليها من أنظمة لم تجد فيها متنفسا لاحزانها ، ومخرجا لمشاكلها ، وستظل الدنيا بأسرها على هذه الحال ، وسيظل المسلمون على ضعفهم وحيرتهم ما لم يعودوا الى دينهم ، ويلتمسوا الحلول لمشاكلهم من شريعتهم ، ويرفعوا علم الجهاد خفاقا عاليا فى وقت تسيطر فيه شريعة القوة المساندة للظلم المتنكرة للعدل ، المتنافية والمتنافرة مع الرحمة ، على كل تصرفات الافراد والامم والشعوب والحكومات ، يغذيها شعور دفين بالكيد للاسلام وللمسلمين وفق مخطط مدروس ومرسوم لن يرجع عن تنفيذه الاعداء ، ما لم يواجههم المسلمون بما سبق أن واجهوا به أمثالهم يضربون منهم الاعناق ، ويستخلصون منهم المظالم ، ويخرجونهم من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، حتى يعبد الله وحده لاشريك له ،وتستريح الدنيا مرة أخرى من ظلم المتجبرين ، وعنت واستخفاف المتكبرين ، ولن يتحقق ذلك الا بالقتال واحياء ما أماتة المسلمون من سنة الجهاد .

موجبات النصر

سبق أن أشرنا الى أن الغاية العظمى من الجهاد هى تحقيق الرحمة للبشرية كلها ، ولن تتحقق الرحمة الا اذا كانت كلمة الله هى العليا فى الارض كما هى العليا فى السماء ، ولن تسود كلمة الله فى الارض ويكون لها الغلبة على كل ما عداها الا اذا تم تنفيذ ميثاق الرحمة المتمثل فيما جاء به القرآن من أحكام من أجل سعادة البشر الدنيوية والدينية •

وما لم يتم تنفيذ هذا الميثاق على الحد الذى حده المشرع الحكيم دون زيادة فيه أو نقصان منه ، فلن يستقر للبشرية حال ولن يهدأ لها بال ، وستظل حائرة تائهة فى بيداء المهالك والضلالات ، لقصور أنظمتها البشرية عن الوفاء بكل متطلباتها المادية والمعنوية خدمة للجسد والروح • وعلى هذا فالجهاد ليس شعارا يرفعه المسلمون حين يريدون ، وينكسون أعلامه أنى يشاؤون ولكنه ضمانة مستقرة ومقرر من مقررات الدين وأمانة من أمانات العقل والضمير ، يعد له المؤمنون العدة وقت السلم من قوة البدن والروح وقوة السلاح ، ويخوضون تحت لوائه معارك الحرب والتحرير من أجل سعادة الانسان الدنيوية والدينية ، كلما حالت بين الانسان وبين القيام بواجبات العبودية قوة من قوى الارض الشريرة ، ونزعة من نزعات الظلم تريد اذلاله وامتهان كرامته •

واذا كان الجهاد على تلك الدرجة القصوى من الاهمية والخطر لارتباطه ارتباطا وثيقا بالتمكين للدين وملازمته لفترات القوة والضعف التى أصابت المجتمعات الاسلامية ، حين فهمه المسلمون حق فهمه وأنزلوه منزلته فى الحالة الاولى ، ولغفلتهم عن حقيقته وسر تشريعه فى الحالة الثانية ، لذلك فان لتحقيق النصر عن طريق الجهاد موجبات ان أدركها المسلمون وعملوا على تحقيقها وفاهم ربهم أجرهم وأجرى التمكين للدين على أيديهم وجاءتهم الدنيا وهى راغمة ، وان لم يدركوها

وكلهم الله الى أنفسهم ، وتركهم لتدبيرهم ، ففازوا بصفقة المغبون ، وفى الآخرة عذاب من الله أليم • وأظهر موجبــات النصر التى أردت الاشارة اليها هى الامور الجليلة التى ضمها قوله تبارك وتعالى :

« ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » سورة آل عمران •

أولا ــ الصـــــبر :

الصبر خلق اسلامى متقدم وعدة انسانية رفيعة ، يتحمل الانسان فى ظله وتحت لوائه ما فى الحياة من آلام فلا يجزع ولا يهون ، ويحقق الانسان تحت قيادته ما يصبو اليه من آمال وما يتطلع اليه من مطامح دينية ودنيوية وهو هادىء البال مرتاح الضـــمير ، فلا غرو أن يكون الصـــبر أمارة من أمارات الســـــعادة ، وشيمة من شــــيم المؤمنين الصادقين ، به يستعين الانسان على الشدة والكروب التى تخلقها طبيعة الدنيا وتقلب أحوالها ، وبه تدرك الحظوظ وتنال طيبات الحياة فى رفق وأناة •

وما دام الصبر عدة وزادا وسلاحا يجب حمله على طريقة الحياة ، يواجه بهالانسان المصاعب والمصائبكلما اعترضت طريقه ، فأضعفت من قدرته أو ثبطت من همته ، كما يواجه به متطلبا تهوواجبات العبودية لله فى الارض ، لذلك فان الصبر عندما تهيج نيران الحروب وترتفع قعقعة السلاح أوجب ما يجب أن يتحلى به المسلم فبه يدرك النصر ويتمكن المسلمون ويمكنون لشريعتهم فى الارض •

ويكفينا ما مضت به سنة الاولين من الصحابة والتابعين ، حيث لم يقتصر صبرهم على العبادات بل ظهر قويا عملاقا فى كل المجالات التى اقتضت وتطلبت صبرا فى السلم أو فى الحرب على حد سواء ، وهم يرفعون القواعد للاسلام ويضعون الاساس المكين للدولة الاسلامية الناشئة •

وما أروع ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين يوم بدر من صبر على القتال وثبات

عنـــد الزحف :

حكى محمد بن اسحق : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فحرض الناس على الجهاد وقال لكل امرىء ما أصاب • وقال والذى نفسى بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة فقال عمير بن حمام من بنى مسلمة وفى يده تمرات يأكلهن ، بخ ، بخ ، ما بقى بينى وبين الجنة الا أن يقتلنى هؤلاء القوم ، ثم قذف بالتمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل » (١) •

وأنشد يقول :

ركعنا الى الله بغـــير زاد الا التقى وعمـــل المعـــاد
والصبر فى الله على الجهاد وكـــل زاد عرضـــة النفاد
غـــير التقـــى والبـــر والرشـــاد

وفى غزوة أحد حيث أصاب المسلمين ما أصابهم وجل بهم ما لم يخطر على بالهم فاستقبل سبحانه وتعالى ذكر المصيبة التى نزلت بهم ، والبلاء الذى أصابهم ، والتمحيص لما كان فيهم ، واتخاذه الشهداء منهم ، فقال تعزية لهم ، وتعريفا لهم فيما صنعوا وفيما هو صانع بهم ، فقال تعالى :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القـــوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولهـــا بين الناس ، وليعلـــم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شـــهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين : سورة آل عمران •

ثم يقول تعالى مخبرا عن حكمته وهى ابتـــلاء المؤمنين بالمـــكاره واختبارهم بالشدة ، حتى يعلم صدق ايمانهم واخلاص نيتهم لله ومدى صبرهم على ما أصابهم وهى الصفات المؤهلة لدخول الجنة ونيل الكرامة فقال تعالى :

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٤١ .

« ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » سورة آل عمران .

ولقد كان المسلمون فى جميع المعارك التى خاضوها والغزوات التى خرجوا اليها ، أمثلة عالية للشجاعة الفذة ، والصبر الجميل ، فمكن الله لهم ، وأمكنهم من رقاب عدوهم ، يفتحــون البــلدان ، وينشرون العمران ، ويرفعون ألوية الاسلام ، ويقودون البشرية الى حيث الأمن والطمأنينة والسلام .

ويكفينا تدليلا على مدى ما كان يتحلى به المؤمنون الاوائل من صبر جميل ، وكأن القتال لديهم كان رياضة مفضلة وليست أمرا مكتوبا ما فعله خالد بن الوليد عندما حضرته الوفاة حيث قال باكيا :

لقد حضرت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى شبر الا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء[1] .

وما أروع ما قاله ايضا :

ما ليلة يهدى الى فيها عروس ، أو أبشر فيها بغلام بأحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو (٢) .

وهكذا كان الصبر عدة وسلاحا ، تحمل المسلمون الاوائل خاصتهم وعامتهم تحت ظله وتحت لوائه الشدائد والمصائب ، فما وهنوا لما أصابهم ، وما ضعفوا وما استكانوا لما حل بهم ، بل زادتهم المصائب والشدائد يقينا بموعود الله لهم ، وايمانا بوعد الله الذى لا يتخلف عن عباده الصابرين،متى حسنت النيات وصدقت العزائم وصدق الله العظيم حيث يقول :

« انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ، ص ٧٨ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ، ص ١١٤ .

المصابرة :

ان مصابرة العدو عند التقاء الجمعين من حقوق الله الخالصة ورغم أن حقوق الله فيما يتعلق بالجهاد كثيرة فان أعلاها مصابرة العدو بأن لا ينهزم المقـــاتل المؤمن من مثيلــه ، وقد كان الله تعـــالى فى أول الاسلام فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين فقال تعالى :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منـــكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

ثم خفف الله عز وجل عنهم عند قوة الاسلام وكثرة أهله فاوجب على كل مسلم لاقى العدو أن يقاتل رجلين منهم فقال :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين » .

وحرم على كل مسلم ان ينزهم من مثيله الا لاحدى حالتين :

اولا : امـــا أن يتحرف لقتـــال فيولى لاستراحة أو لمكيدة ويعود لقتالهم .

ثانيا : واما أن يتحيز الى فئة أخرى يجتمع معها على قتال الاعداء .

وهذا معنى قوله تعالى :

ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله .

وسواء قربت الفئة التى يتحيز اليها أو بعدت فقد قال عمر رضى الله عنه أنا فئة لكل مسلم ويجوز اذا زادوا على مثليه ولم يجد الى الصابرة سبيلا أن يولى عنهم غير منحرف لقتال ولا متحيز الى فئة ، هذا مذهب الشافعى . واختلف أصحابه فيمن عجز عن مقاومة مثليه وأشرف على القتل فى جواز انهزامه ، فقالت طائفة : لا يجوز ان يولى عنهم منهزما وان قتل للنص فيه . وقالت طائفة يجوز ان يولى ناويا ان يتحرف لقتال

أو يتحيز الى فئة ليسلم من القتل وما ثم خلاف ، فانه وان عجز عن المصابرة فليس بعجز عن هذه النية • وقال أبو حنيفة لا اعتبار بهذا التفصيل والنص فيه منسوخ وعليه أن يقاتل ما أمكنه وينهزم اذا عجز وخاف القتال (١) •

تقـــوى الله :

ان هذه الامة لا يصلح آخرها الا بما يصلح به أولها وانما كان اصلاح أولها بتقوى الله تعالى ، والعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسارعة الى فضائل الاعمال وجميل الاخلاق وأحسن المعاملات وحزب معه الله منصور ولا شك ، ومجتمع يتوسل بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مؤيد ظافر ، والامر سهل ميسر ، لو تبصر الانسان ، ومن قام للحق ليظهره أظهره الله تعالى ، ومن طالب بحق هو له ابتغاء مرضاة الله تعالى فاز بما يقصد ، فنال خيرى الدنيا والاخرة ، ومن علم أنه مسئول أمام سلفه ليحفظ آثارهم ، وأمام أهل عصره ليقتدوا به ، وأمام رجال المستقبل ليتشبهوا به ؛ ويحيا بينهم بلسان الصدق والثناء ، استرخص كل غال فى سبيل نيل هذا الخير العظيم (٢) •

أن يكون القصد اعلاء كلمة الله

ومن أبرز موجبات النصر أن يكون الهدف الاسمى من القتال هو نصرة دين الله تعالى واظهاره على غيره لقوله تعالى :

« ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

فيكون المقاتل المسلم بهذا الاعتقاد حائزا لثواب الله تعالى ومطيعا لاوامره ، فيكون أكثر ثباتا وأبلغ نكاية •

وعلى هذا فان الاسلام لا يعرف حروب المصالح أيا كانت طبيعتها وأيا كان الدافع اليها ، كحروب الاستعمار ، والحروب التى يبتغى من ورائها توطيد حكم واتساع ملك ، واكتساب شهرة • كما يحدث فى كثير من

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٤٤ — ٤٥ •
(٢) الجهاد للامام محمد ماضى أبو العزايم ص ١٠٦ •

الاحيان وما حدث فعلا على المستوى العالمى ، وأبغض الحروب تلك التى تنشب بدوافع الانتقام واستذلال الشعوب واستعبادها واستغلالها وامتصاص خيراتها •

وفى غزوة بدر وهى نقطة التحول فى مستقبل الدعوة الاسلامية ، نزل العقاب قاسيا من السماء لمارأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قبول الفداء وظهرت شبهة المصلحة المادية رغم أن الاموال التى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم قبولها كفداء للاسرى كانت ستستعمل لمصلحة الدعوة الاسلامية ومساندتها ماديا •

وقصة ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جمع أسرى بدر وكانوا أربعة وأربعين رجلا بعد أن قتل فى المعركة من أشراف قريش مثلهم شاور أصحابه فيهم • فقال عمر : يا رسول الله أقتل أعداء الله أئمة الكفر ورءوس الضلالة فانهم كذبوك وأخرجوك • وقال أبو بكر هم عشيرتك وأهلك تجاوز عنهم ، يستنقذهم الله بك من النار ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قبل الاسرى بيوم ، فمن قائل : القول ما قال عمر ومن قائل : القول ما قال أبو بكر ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وقال « ما قولكم فى هذين الرجلين ؟ ان مثلهما كمثل اخـوة لهما كانوا من قبلهما ، قال نوح (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) وقال موسى (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم) وقال عيسى (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) وقال ابراهيم (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) • ان الله سبحانه ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، ويلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وأن يكن منكم عيلة فلا ينقلب الا بفداء أو ضربة عنق • وفاداه كل أسير بمبلغ من المال • فلما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فداء أسرى بدر لفقر المهاجرين وحاجتهم عاتب الله تعالى نبيه على ما فعل فقال : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض) يعنى به القتل (تريدون عرض الدنيا) يعنى مال الفـدا (والله يريد الآخرة) يعنى العمل بما يوجب ثواب الاخرة (والله عزيز حكيم) يعنى عزيز فيما كان من نصركم ، حكيم فيما أراده لكم ، (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) يعنى به مال الفداء المأخوذ من الاسرى •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية (لو عذبنا الله فى هذه الاية يا عمر ما نجا غيرك) (١) •

عدم موالاة الاعداء :

ومن موجبات النصر أن ينصرف المسلمون فى قتالهم الى هدف واحد هو الانتصار لشريعة الله واعلاء كلمته ، وهذا يفرض أن لا يمايل من المشركين ذا قربى ، ولا يحابى فى نصرة دين الله ذا مودة • ويجب على المؤمنين وهم بصدد تحقيق هدفهم الاسمى ألا ينخدعوا بمن يمد يدا ظاهرة اليهم ، أو يتظاهر بمساندتهم والانتصار لهم ، فأعداء المسلمين هم أعداء دينهم ، ولا يتصور أبدا أن تكون المســاندة لوجه الله ، بل دائما ما تكون مساندة تمليها المصالح ، وتفرضها المطامع ولهذا يقول تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) •

المرابطــة :

والمرابطة بمعنى الاستعداد والملازمة من موجبات النصر ، وجماع ما يمكن أن يقال عنها بأنها الاستعداد الدائم المستمر باعداد العدة والتسلح بالقوة لمواجهة العدو عندما تفرض الحرب نفسها على المسلمين بقيام سبب من الاسباب الداعية اليها والملجئة لها وفى هذا يقول تعالى :

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » •

ولقد صور أحد نصارى العرب ما كان عليه المسلمون من استعداد دائم لملاقاة الاعداء وذلك عندما أرسله بطريق دمشق ليتجسس أخبار المسلمين فقال لما رجع : جئتك من عند رجال دقاق ، يركبون خيولا عتاقا ، أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ، ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمك عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر •

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٤٥ — ٤٧ .

فقال البطريق لاصحابه وقد التفت اليهم : أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به (١) ٠

هذه هى أظهر موجبات النصر ان تحققت أنجز الله للمؤمنين وعده ، وأتم لهم عهده ، وان تخلفت سلط عليهم عدوه وعدوهم فساموهم الخسف والهوان حتى يعودوا الى ربهم ويلزموا الطريق الذى رسمه لهم من أجل الفلاح الدينى والدنيوى ٠ وما علينا وقد أوجزنا جانبا هاما من موجبات النصر ، الا أن نسوق نماذج حية انطبع بها واقع المسلمين العملى وتعتبر من أرقى ما عرفته البشرية بل أرقى ما عرفته من معدلات الرجولة وكانت نتيجة منطقية لفهم المسلمين لحقيقة دينهم وادراكهم لامانة قيادة البشرية التى وكلها الله اليهم وألقاها على عاتقهم ، كما كانت السبب الحاسم فى ما وصلت اليه الدولة الاسلامية فى فترة لا يحسب لها فى عمر الزمن حساب من قوة ومنعة وعزة ، وما حققته من سلطان مادى وروحى وما كفلته للبشرية كلها من أمن كامل على الاديان والانفس والاعراض والعقول والاموال ٠

وما على المسلمين ان ارادوا أن يلحقوا بأسلافهم على طريق العزة والكرامة ، الا أن يتدبروا تلك النماذج جيدا ، وكيف تركت آثارها فى واقع الحياة ، وما حوته من كل موجبات النصر ، تطهر روحى ، وشجاعة فذة ، وتضحية مؤثرة ، وومضات روحية بارعة ، وفناء فى الفكرة ، وبطولات حية فى شتى مناحى الحياة وجوانبها لا يكاد يحصيها التاريخ ، ويصعب عليه أن يجود بمثلها مرة أخرى فكأنما كانوا شموسا طلعت فى سماء الانسانية مرة ولا تطمع الانسانية أن تطلع فى سمائها شموس من طرازهم وعلى شاكلتهم مرة أخرى ٠

ولا شك أن ظهور تلك النماذج كان نتيجة للروح الاسلامى الذى سرى فى النفوس البشرية واستقر فى الوجدان البشرى ، فتحققت كل معدلات الرجولة فى الانسان المسلم ، علا قدره أو تواضعت منزلته ٠

ولا شك أيضا أن هذا الروح المؤثر العميق هو الذى جعل حفنة من عرب الجزيرة تمزق امبراطوريتى كسرى وقيصر فى فترة قصيرة ، كما

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٦ ٠

استطاع هذا الروح المؤثر العميق أن يقيم دولة جمعت بين السلطان الروحى والسلطان المادى • كانت مفاجأة لكل من شهد هذا الحدث التاريخى الفذ ، حيث لم تعرف البشرية دوراً من أدوار التاريخ بلغت فيه دولة ما بلغته الدولة الاسلامية فى عصر الخلافة الفذة حيث اتجهت الدنيا اتجاها جديدا وسارت البشرية سيرا حثيثا عادلا متزنا متوازنا فى أمور دينها ودنياها ، فدين متبع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دار ، وأمل فسيح اتسعت بسببه النفوس ، ومن وراء ذلك انسان مسلم محصن من جميع جوانبه ينطق بالحق ويصدع بالصدق ، ما دام فى ذلك رضا الله وطمأنينة القلب ، واستقرار الضمير ، دون خشية من وعيد ، أو رهبة من تهديد •

وها نحن نسوق جانبا ـ جد محدود ـ من هذا الحشد الهائل من النماذج الاسلامية الذى ازدحم التاريخ به ، ولا زال الزمان يشير اليها بأصابع الاجيال ، بسبب ما ظهر منها من عبقريات ، وما برز من بطولات ، مرجعها كلها الى مرجع واحد ثابت على الزمن هو هذا الروح الاسلامى المؤثر العميق ، ونسوق تلك النماذج عظة لجماعة المؤمنين وبسنة الله فيهم عسى أن تخلص النيات وتصدق العزائم ، وتدب الغيرة فى نفوسهم من أجل استئناف حياة اسلامية جديدة يرضى عنها الله ويأخذ بأيدينا الى ما فيه عزتنا وما به تتحقق كرامتنا •

يروى ابن هشام فى سيرته عن أحداث غزوة أحد أنه لما فرغ الناس لقتلاهم ، طلب النبى صلى الله عليه وسلم أن يقف على ما فعل الله بسعد بن الربيع ، فقام رجل من الانصار ينظر ما فعل الله بسعد ، فنظر فوجده جريحا فى القتلى وبه رمق • وقال الانصارى لسعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر أفى الاحياء أنت أم فى الاموات ؟ قال : انا فى الاموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام ، وقال له : ان سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن امته ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : ان سعد بن الربيع يقول لكم : انه لا عذر لكم عند الله ان خلص الى نبيكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عين تطرف •

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار وقد اصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، فلما

نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى انظر اليه ؟ فأشير لها اليه حتى اذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة .

١ — فى ذكرى يوم الرجيع سنة ثلاث هجرية كما يروى ابن هشام فى سيرته ، أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة يطلبون نفرا من الصحابة يقرئونهم القرآن ويعلمونهم شرائع الاسلام ، فبعث معهم نفرا ستة من أصحابه من بينهم زيد بن الدثنة . فخرجوا مع القوم حتى اذا كانوا على الرجيع ، ماء لهذيل بناحية الحجاز ، غدروا بهم وقتل منهم رضوان الله عليهم من قتل. وأسر من اسر وكان من بين الاسرى زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى ، فقدموا بهما مكة . واما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن امية ليقتله بأبيه ، اميه بن خلف . وحين أخرجوه ليقتلوه ، اجتمع رهط من قريش وفيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : انشرك بالله يا زيد ، أتحب ان محمـدا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وانك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب ان محمدا الان فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى أهلى . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

٢ — وفى غزوة الخندق سنة خمس هجرية كما يروى ابن هشام انه لما عظم البلاء واشتد الخوف بالمسلمين . وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن اسفل منهم ونجم النفاق فى بعض المنافقين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قائدى غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن اصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح الا المراوضة فى ذلك . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يفعل ، بعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له : يا رسول الله امرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا امرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال بل شىء أصـنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك الا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان ،

لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا ثمرة الا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم •• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت وذاك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا •

٣ ــ يبلغ الوفاء للنبى القمة عندما وزع غنــائم حنين فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يعط الانصــار منها شىء ، وكان من الممكن أن يترك هذا الحرمان فى نفوس الانصار كثيرا من الاسى والالم ، وقد شاركوا فى القتال ، وساهموا فى المعركة ، ولكنهم وقد صدرت القالة والكلام من بعضهم ، عادوا فندموا على فعلتهم بعد اجتماعهم برسول الله صلى الله عليه وسلم • وقصة ذلك كما يروى ابن هشام فى سيرته •• ان النبى صلى الله عليه وسلم لما سمع بما فى نفوس الانصار من شبهة عدم الرضا بما صنع ، طلب الى سعد بن عبادة أن يجمعهم ، واتاهم النبى صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : يا معشر الانصار : ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة ــ عتاب وأكثر ما يكون فى المال ــ وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله • وعالة فاغناكم الله ، واعداء فألف الله بين قلوبكم • قالوا بلى ، قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل • قال صلى الله عليه وسلم : اما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم وصدقتم : آتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك • أوجدتم يا معشر الانصــار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برســول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار اللهم ارحم الانصار ، وأبناء الانصار ، وأبناء أبناء الانصار فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ــ بلوها بالدموع • وقالوا رضينا برســول الله قسما وحظا •

٤ — وفى غزوة تبوك يتربع الوفاء على قمة سامقة لا تتطاول اليها الاعناق :

فقد ورد بسيرة ابن هشام ان رجالا من المسلمين أتوا النبى صلى الله عليه وسلم هم سبعة نفر من الانصار وغيرهم وهم البـــكاءون ، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون .

ثم ان أبا خيثمة — كما يرى ابن هشام فى سيرته — رجع الى أهله فى يوم حار بعد ان سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاما . فلما دخل قام على باب العريش فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح — الشمس — والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كانت تلك الشجاعة النادرة نتيجة منطقية لفهم المسلمين لرسالة الاسلام ، كما كانت نتيجة حتمية لسلطان الدين على الضمير ، فلم ينتظر المسلمون أن ينصرهم الله بضرب من قدرته فاندفعوا يقيمون الدين على أصوله ويستجيبون لاحكامه ، ويعملون بها فى واقع حياتهم ، دون اعتماد على خارقة من الخوارق ، أو انتظار لمعجزة من المعجزات .

وسرعان ما دبت الحياة فى أوصال البشرية المترنحة واستردت ما ضاع من عافيتها وعادت الى فطرتها السليمة مع اشراقة التوحيد التى أظلتها من جديد .. فاشرقت الارض بعد ظلماتها وتآلفت القلوب بعد شتاتها ، وبرئت القلوب من عللها واسقامها

وتوارت الجاهلية العميـــاء بأنظمتها وأوضـــاعها وســـننها وعاداتها وتقاليدها وامسك الاسلام بالزمام والقياد ، يعمل المسلمون باحكامه للحق والخير .. يتعاملون بالايثار ، ويقضون على نوازع الاثــرة والانانية ، متجافين عن الحاضر الفائت ، راغبين فى الغائب الموعــود ، مؤثرين العواقب على المبادىء ، والعظيم الباقى على اليسير الفانى ،

والكثير المتصل فى الاخرة على القليل المنقطع فى الدنيا • وقد سلطهم الله على قهر طباعهم ولم يتركهم الى دواعى أنفسهم حتى كان الواحد منهم اذا طرقت سمعه صيحة من صيحات الحق الذى جاء من عنـد الحق ، بردت عصبيته وتطامنت عنجهيته ، وتوارت نوازع الهوى فى نفسه ، فغلب نزوعه للحق على نزوعه لنصرة الالف فكان ذلك بلا شك أروع منظر لسلطان الدين شهدته البشرية فى تاريخها الطويل عبر القرون والاجيال ••• فرأت البشرية ولأول مرة فى تاريخها سواء فى سلمها أو حربها من الاعمال التى أتاها المسلمون ما يعتبر من معجزات التاريخ • فكانوا فى أوقات سلمهم كالملائكة المقربين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يتحرون الحق ويذعنون للانصاف ويقضون على الظلم فى نقـاء سريرة وطيب نفس وخلوص العمـل من العوج والرياء • وكانوا أوقات الحرب وكانما ولدوا مع السيف ، ما خاضوا معركة من المعارك الا وطارت رءوس الأعداء تحت أقدامهم مهما كان عددهم وايا كانت عدتهم وما كان أحب الى الواحد منهم من ليلة يقضيها فى سرية من المسلمين يصبح معهم العدو فى صبر وصدق لقاء ، يحبون الدين ويناضلون عن المسلمين ، قد أخلصهم الخوف من الله فهجروا ما ينقطع عنهم ، لما يبقى لهم ، الحياة عليهم نعمة ، والموت فى سبيل الله لهم كرامة •

ولقد بدت الشجاعة قمة سامقة لا تتطاول اليها الاعنـاق على مـر العصور والاجيال ولو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية ، وذلك فى سلوك النبى صلى الله عليه وسلم وتبليغ ما أمره الله بتبليغة وسط حشد هائل من العقائد الواهية ، والوثنية الضالعة وبقـايا الديانات المحـرفة ، والفساد المستشرى والوالغ فى الاعماق •

ولقد كان لتلك الشجاعة أثرها الحاسم فى التمكين للاسلام ، تحركت معها الحوادث بسرعة مذهلة حتى أدركت الجاهلية أنها بأوضاعها سائرة لا محالة الى الزوال والفناء ، وأحس الظالمون بمصارعهم تقترب من نهايتها المحتومة وهو ما كان •

وتاريخ الغـزوات الاسلامية مملـوء بحـوادث الشجاعة النـادرة والبطولات الفذة حيث ارتفع الواقع ليلتقى بخواطر الافكار وسوانح الاحلام •

ففى غزوة بدر استشار النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فقام المقداد بن عمرو فقال « يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى » « اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » .... ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لوسرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » [1] .

وقال سعد بن معاذ للرسول عليه السلام : « فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله [2] .

وفى وصف المسلمين قبل المعركة قال أحد المشركين لقريش بعد أن تحسس أمر المسلمين ورآهم رأى العين : « ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ الا سيوفهم [3] .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل حتى قتل [4] .

كان عمرو بن الجموع رجلا أعرج شديد العرج — وكان له بنون أربعة كالاسود — يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، وقالوا له : ان الله عز وجل قد عذرك ، فأت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله انى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك وقال لبنية : ما عليكم أن لا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل يوم أحد [1] .

ولم تكن الشجاعة قاصرة على الرجال بل شاركهم فيها النساء فهاهى أم سليم ابنة ملحان يراها الرسول فى غزوة حنين حازمة وسطها ببرد لها ، ومعها جمل زوجها أبى طلحة وهى حامل بعبد الله بن أبى طلحة ومعها خنجر لها ، وهى تقول للرسول لما ساءها فرار بعض المسلمين « يا رسول الله أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فانهم لذلك أهل » [2] ... ولما سألها أبو طلحة عن الخنجر الذى معها قالت « خنجر أخذته ان دنا منى أحد من المشركين بعجته بـه » .

ولم تكن الشجاعة من شأن خاصة المسلمين وحدهم بل شاركهم فيها العامة منهم ، حيث باع الكل أنفسهم لله ولنبيه . فلم يكد يلوح موقف من مواقف الشجاعة الا طاروا اليه زرافات ووحدانا ، مؤمنين بوعد الله لهم واضعين نصب أعينهم قوله تعالى : « للذين احسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » [3] .

« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » [4] .

« ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح » [5] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، جـ ٤ ، ص ٨٨ — ٨٩ .
(٣) سورة آل عمران .
(٤) سورة آل عمران .
(٥) سورة التوبة .

كما لم تكن الشجاعة فى ميادين الحرب من شأن الجندى وحده ، بل كان القائد هو الاخر أسرع الى الشجاعة وأشد استمساكا بها . فلقد رأينا القائد يلازم جنوده وقد انتشر الطاعون وعم البلاء ، ويرفض نداء الخليفة بالعودة اليه فرارا من المرض ، مفضلا البقاء بين جنوده ، ولو كان الموت أقرب اليه من حبل الوريد .

ففى عام طاعون عمواس بالشام ، لما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر كتب الى أبى عبيدة بن الجراح بالشام ليستخرجه منه فقال : أن سلام عليك اما بعد ، فانه قد عرضت لى اليك حاجة أريد أن أشافهك بها ، فعزمت عليك اذا نظرت فى كتابى هذا أن لا تضعه من يدك حتى تقبل الى . وكان من الممكن أن يسارع أبو عبيدة الى امير المؤمنين امتثالا لأمر قائده ، وفرارا من الطاعون ، ولكن سلطان الضمير يفوق على جميع الاعتبارات ففضل البقاء بين المقاتلين حتى يقضى الله فيه وفيهم أمره وقضاءه ، ولو كان فى البقاء حتفه وهلاكه ثم كتب الى أمير المؤمنين : يا أمير المؤمنين : أنى قد عرفت حاجتك الى ، وانى فى جند من المسلمين ، لا أجد بنفسى رغبة عنهم فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره وقضاءه ، فخلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى . فلما قرأ عمر الكتاب بكى فقال الناس ياأمير المؤمنين أمات أبو عبيدة : قال : وكأن قد (١) .

ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة بكى ثم قال : لقد حضرت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى شبر الا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء . وهو القائل أيضا : ما ليلة يهدى الى فيها عروس ، أو أبشر فيها بغلام بأحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو (٢) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ، ص ٧٨ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ، ص ١١٤ .

الفصل السادس

تَرْكُ الْفُرْقَةِ وَتحقيقُ الوحدة

لقد أتى على المسلمين زمان وكل دولة من دوله واقعة فى قبضة غيرها من دول الارض تسوسها الخسف والهوان ، تستنزف خيراتها ، وتوجهها الى ما لا يتفق وظروفها وحاجاتها وضميرها • الامر الذى ظهر أثره واضحا فى الانظمة الاجتماعية فى الدول الاسـلامية التى استخلصت استقلالها من الطغاة الذين كانوا يتحكمون فيها • وقد ظهر ذلك واضحا على مستوى الفـرد وعلى مستوى الاسرة وعلى مستوى الملك • وكان مرجع ذلك أن كل دولة من الدول التى سيطرت على مقاليد الامـور فى دولة اسلامية كانت تسوقها الى اعتناق مبادئها والترويج لها ، عن طريق الغزو الفكرى والمادى حينا ، وعن طريق التشريع والتقنين آخر ، وعن طريق الشحنات العاطفية تلهب بها الدول المسيطرة دماء الشعوب الاسلامية ، وعن طريق الاستمالة مرة والتهديد فى أغلب الاحيان حتى غدا كل ما فى الدول الاسـلامية على غير هيئته وخلقته ، بل وأكثر من ذلك أصبح لكل دولة مسيطرة ولها من غير أبنائها من يروج لها ويدعو الى مبادئها فى حماسـة لا تقل عن حماسة أبناء الدولة المعتدية ، بل وأكثر من ذلك أيضا وجدت كل دولة من دول القهر والاستعمار من أبناء المسلمين أنفسهم من هم فى عونها ونصرتها بطريقة سرية وعلنية ، متناسين تماما ما يفرضه عليهم دينهم ، فأصبحوا كغيرهم — من غير أبناء الاسلام — عونا للزمان على الاسلام والمسلمين ، قد أخلصهم الولاء لغير دينهم الى خلع ربقة الاسلام عن أعناقهم فمرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية •

وكان من نتيجة كل ذلك أن تكونت أنظمة اجتماعية داخل كل دولة اسلامية بعيدة كل البعد عن واقعها وضميرها فى التشريع وفى الاخلاق وفى المعاملات وفى الحقوق والواجبات وفى كل ما يمس شئون الحياة ، وأدى ذلك الى الفرقة والانقسام داخل كل دولة اسلامية ، كما أدى الى القطيعة والعداء بين الدول الاسلامية بعضها مع البعض الآخر •

لذلك فانه على طريق العودة يجب أن يطرح المسلمون على مستوى الافراد والاسر والدول عوامل الفرقة ونوازع الهوى ، ويأخذوا بأسباب الاتفاق والتضافر والوحدة وذلك بأن تتحد الوجهة ، وتتشرف الغاية ، ويسمو الهدف •

وعندما نتكلم عن الوحدة لا أعنى بذلك أن يصبح حاكم المسلمين فى جميع البلدان شخصا واحدا وأن تكون سلطة الدولة واحدة فان ذلك قد يكون عسيرا ، وانما أرجو أن يشعر — كل من يتولى أمر المسلمين فى أى دولة اسلامية من دول الارض — بشعار الاخاء المؤزر بمنطق العقائد، المشدود بروح الاخلاص الذى يفرضه الدين ، وتقتضيه واجبات الخلقة فى خدمة الحق •

والوحدة الاسلامية مقرر من مقررات الدين وطريق من طرائق التمكين له ، وسيادة أحكامه ، وسيطرتها على شئون الحياة كما أراد الله لها أن تكون • والاسلام دين الجماعة وهذا ما عرف المسلمون فى أدوار التاريخ وخصوصا فى الفترة القديمة من تاريخ الاسلام • لذلك فان مشاقة المسلمين والخروج عن جماعة المسلمين وأهدافها السامية يوجب الوعيد فى الآخرة • ويستوجب المقت فى الدنيا • وقد قرن الله تبارك وتعالى سبيل المؤمنين بطاعة رسوله فقال تعالى :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » [1] •

فضم سبحانه وتعالى الجنوح الى غير سبيل المؤمنين الى مشاقة الرسول ليدل على أنهما متلازمان ومن أجل المحافظة على وحدة الأمة

---

(١) سورة النساء : الآية ١١٥ .

الاسلامية باعتبارها الطريق الى القوة والعزة والمنعة ترى الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته يدعو المسلمين الى الوحدة وينهاهم عن العصبية والفرقة ويأمر بالضرب على كل من يأتى ليفرق جماعة المسلمين وهم على قلب رجل واحد .

فعن ابن عمر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ؟ لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » [1] .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله الا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [2] .

وحرصا على وحدة الامة ينفى النبى صلى الله عليه وسلم الايمان عن كل من يحمل السلاح على المسلمين بغير حق .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حمل علينا السلاح فليس منا » [3] .

ومن هنا تبدو أهمية وحدة المسلمين والتفافهم حول عقيدتهم باعتبارها نقطة تجمعهم ومركز انطلاقهم ، تتعارف على أساسها أرواحهم ، وتأتلف آحادهم فيجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم ، وتختفى نوازع الهوى من أنفسهم ، ويمسكون من جديد بالزمام والقياد ويعودون كما كانوا خير أمة أخرجت للناس كما أراد الله لها أن تكون ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

ولا شك أن الطريق الى الوحدة الاسلامية شاق ومرير يحتاج الى كثير من التضحيات فى مواجهة الانظمة التى تقتسم البشرية الآن وتتحكم فى مقاديرها ، كما يحتاج الى كثير من التضحيات والمسئوليات من أجل ازالة العوائق الفكرية التى تعترض ارادة التغيير ، كما يتطلب أخيرا

---

(١) عمدة القارىء ج ٢٤ ، ص ١٨٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٣٨ .
(٣) عمدة القارىء ج ٢٤ ص ١٨٦ .

صبرا وثباتا أمام أصحاب المطامع والشهوات المتحكمين فى رقاب العباد بما يملكونه من سيطرة سياسية واقتصادية ليس فى نيتهم هجرها والتخلى عنها الا بانتزاعها من بين أيديهم .

ورغم هذا فان الطريق الى الوحدة سهل ميسور اذا احتضن المسلمون شريعتهم وفهموها على حقيقتها وأقاموها فى أنفسهم وتكيفوا بهـا فى واقع حياتهم وتفانوا فى سبيلها واتخذوها منهجا لهم ، على أساس من المسئولية الكاملة أمام الله ، ان قصروا فى القيام بمتطلباتها لا يقـوم لهم عذر ولا تثبت لهم حجة عند الله .

خاتمة

نختتم بهذه الكلمة فصولا كتبناها عن بعض أظهر واجبات العبودية لله ، ونحن نعلم أن هذه القوة الروحية الخالدة ـ وأعنى بها الاسلام ـ فى مفترق طريق وعرة شائكة ، وعليها أن تثبت وجودها فى حاضرها ومستقبلها بعد أن أثبتت وجودها فى ماضيها ، ولن يتأتى له هذا ما لم يدرك المسلمون حق الادراك مدى ما ألقاه الله على عاتقهم من مسئولية ومدى ما حمله اياهم من تبعات لاقامة الدين والتمكين لاحكامه ، والوقوف أمام الحملات المسعورة التى يشنها عليه خصومه ، تلك الحملات المتراخية مع الامس ، المستمرة مع الحاضر ، والمتطاولة مع الغد ، تلك الحملات التى تفرض اليقظة الدائمة المستمرة ، المعتمدة على قوة الروح أولا وعلى قوة الدولة والسلطان ثانيا ، والاخذ بكل أسباب القوة بصفة عامة ليستطيع المسلمون التعامل مع المجتمعات البشرية الفاجرة التى لا تعرف الا شريعة القوة المستندة الى كل ما لا يمت الى الحق والحرية بصلة ، ولعل هذا المنطق هو أسوأ ما شهدته البشرية فى تاريخها الطويل وأعنى به منطق القوة فى القرن العشرين حيث ألغى هذا المنطق الوجود الحقيقى لكثير من دول الارض وشعوبها فأصبحت تلك الدول والشعوب وكأنها قوافل من العبيد مساقة الى حتفها وهلاكها مكبلة بالقيود والاغلال ، كما أصبحت الدول الضعيفة توابع لغيرها من دول الارض راضية أم كارهة ، التى تملك منطق القوة الصريح ، تسبح الدو الضعيفة فى فلكها وتخضع لسلطانها وتأتمر بأوامرها ، مسلوبة الرأى فى السياسة العالمية ، وحتى فى السياسة الداخلية نفسها .

ولا نكون مغالين اذا قلنا ان منطق القوة أصبح أساس التعامل بين الاقوياء والضعفاء أيا كان سبب القوة ماديا كان أو معنويا وأيا كان سبب الضعف ماديا كان أو معنويا وذلك على مستوى الأفراد والدول والجماعات .

ولا نكون مغالين أيضـــا اذا قررنا أن الحظ الأوفى من هـــذا المنطق موجه الى الدول الاسلامية بالذات كجزء من مخطط ممعن فى القسوة والاعنات للنيل من الاسلام والمسلمين ، وهى الحملات التى شنها عليه الاستعمار ، عندما فقد المسلمون قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال ، وهى القوى التى لازمت النظام الاســلامى بجانب قوة الروح ، فتمكن فى الارض وأخلى الطريق من جميع الانظمة التى تتنكر للعدل وتقوم على الظلم • من أجل ما سبقت الاشارة اليه رأيت أن من أولى ما يمكن تقديمه هو الحديث عن بعض أظهر واجبات العبودية لله فى الارض لما فيها من تبصير للمسلمين بواجباتهم ، وبطبيعة القوى الخطيرة المحيطة بهم والمتربصة باسلامهم وباعتبارها نقطة البدء لكل من أراد أن يقيم الدول ويبنى قواعد النظام على أســاس ما جـاء به الاسلام • وكان من الطبيعى أن استهل اســتعراض أظهــر واجبــات العبودية بالاشارة الى مسئولية القيام بها ، تلك المسئولية التى يحمل عبئها جماعة المؤمنين دون غيرهم ممن انحاز الى حظيرة الاسلام ولـما يدخل الايمان فى قلوبهم لأن الدفاع عن الاسلام وبذل النفس والمال فى سبيله وتحمل الشدائد والمصائب دون خوف من وعيد أو خشية من تهديد لا يمكن أن يقوم به الا جماعة المؤمنين وهم تلك الكتلة المتزنة العاقلة الرشيدة التى يهون أمامها كل شىء من أجل الحفاظ على الدين والتمكين له ولو استدعى الامر أن تجود بأرواحها ودمائها من أجله والدفاع عنه لأنها انحازت الى حظيرة الدين بجد واخلاص ، وبايعت ربها على نصر شريعته والانتصار لدينه ، فمركز تجمع تلك الكتلة هو العقيدة تندفع منها لتقاتل كل من يرومها بأذى أو يتعرض لها بشبهة ، وتعود اليهـــا تحكمها فى كل أمر من أمورها الدنيوية وفى كل شأن من شئونها الأخروية دون زيادة أو تحريف فيها ، ودون نقصان منها أو تعطيل لأحكامها •

وعلى هذا فجماعة المؤمنين هم المسئولون عن القيام بواجبـــات العبودية الموعودون بالنصر والتمكين المبشرون بما وعدهم الله به فى الآخرة ، وجماع ما يمكن أن يقال عنهم أنهم النخبة الممتازة الذى توافر فى حقها قيمتان : قيمة مستكنة فى الضمير وهو الايمان ، وقيمة بارزة فى الحياة وهو العمل الصالح ، وفيما عدا هؤلاء ممن انحاز الى حظيرة الاسلام اسما فلا يستطيع أن يتحمل مسئولية القيام بواجبات العبودية

لانهم ليسوا أهلا لها ولا ينفع الاسلام ضعيف متردد أو مذبذب مضطرب فهؤلاء يجب أن يمحوا من صحيفة المؤمنين ، وأن يبتعدوا عن حظيرة المؤمنين الصادقين • وما أكثرهم فى كل عصر وفى كل زمان وحين •

وهذه الكتلة كانت فى عهد النبوة وعهد الخلافة هى مصدر النور الذى أرسل ضياءه ينير للبشرية ما أظلم من حياتها ويفتح أمامها الطريق الى الله ، كما كانت تلك الكتلة القدوة الحسنة فى أمور الدين والدنيا وأخيرا فان تلك الكتلة هى التى أخرجت العناصر البشرية الفذة فكان منها الحاكم العالم العادل المشاور ، والقائد القوى والجندى الشجاع شديد المراس ، والعالم الفقيه ، وصاحب الولاية العفيف لايطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ما حفظ من حق أو أدى من أمانة احتسب به الجنة ، القريب والبعيد والقوى والضعيف ، والحاكم والمحكوم عنده فى الحق سواء •

لذلك كان من الطبيعى أن يكون أول مسئول عن القيام بواجبات العبودية وسياسة الامة فى أمور دينها ودنياها هو الحـــاكم باعتباره أقوى العناصر البشرية المختارة من بين أفراد الكتلة المؤمنة ، وباعتباره أقوى الايدى القادرة على التنفيذ بما يملكه من قدرات وممكنات لا تتوافر لغيره من المؤمنين أيا كانت مراكزهم المادية والمعنوية وأيا كانت مكانتهم العلمية ، وباعتباره أخيرا القدوة التى يتطلع اليها سائر المحكومين ان زاغ زاغوا وان عف عفوا وان رتع رتعوا •

ولقد ظهرت سلطة الحاكم قوية عملاقة فى عهد عمر بن الخطاب العظيم ، لدرجة لن يدور الزمان على مثله مرة أخرى ، وعقمت النساء أن يلدن مثل عمر ثانية •

لقد قضى عمر مدة خلافته يتلوى تحت وقع مسئولياته ويضطرب خائفا مذعورا خشية التقصير أو مجرد الشبهة فى التقصيرالتى قد تمس شئون المسلمين الدينية والدنيوية • لذلك كان منطق القوة المستندة الى الحق القائمة على العدل هى السمة البارزة التى اصطبغت بها مدة خلافته الطويلة نسبيا •

ولم يخرج دستوره فى الحكم عما اختطه فى خطاباته الى المسلمين يقول لهم :

اننى بينكم وبين الله وليس بينى وبينه أحد فانهوا شكاتكم الينا أو الى من يبلغناها نأخذ له الحق من غير متعتع ٠

وقوله رضى الله عنه فى القيام بواجبات العبودية :

وان أحق ما تعهــد الراعى من رعيته تعهدهم بالذى لله عليهــم فى وظائف دينهم الذى هداهم له ، وانما علينا أن نأمركم بما أمركم الله به من طاعته وأن ننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته وأن نقيم أمر الله فى قريب الناس وبعيدهم ولا نبالى على من كان الحق » [1] ٠

وقد فصل عمر رضى الله عنه دستوره فى تنفيذ القيام بواجبات العبودية ، ســواء تعلقت واجبات العبودية بحقوق وجبت للمسلمين قويهم وضعيفهم أو ارتبطت بحقوق لله وحقوق للجماعة المسلمة فنراه يرسى دستور الحكم فى قوله :

« أيها الناس أنه لم يبلغ ذو حق فى حقه أن يطاع فى معصية الله وانى لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ، ويمنع من الباطل ، وانما أنا ومالكم كولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدى عليه حتى أضع خده على الارض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ٠

« ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ، لكم على الا اجتبى شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى ألا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم ولكم على أن لا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ٠

« وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الامل ، يعمل فيه أقوام للاخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٣ ٠

كمـــا تأكل النار الحطب ، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر .

يا أيها الناس : ان الله عظم حقه فوق حق خلقه فقـــال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » .

« ألا وانى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم ، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم ، فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ فى جهاد عدوكم .

« أيهـــا الناس انى أشـــهدكم على أمراء الأمصار أنى لم أبعثهـــم الا ليفقهوا الناس فى دينهم ، ويقسموا عليهم فيئهم ، ويحكموا بينهم ، فان أشكل عليهم شىء رفعوه الى » (١) .

وقد ارتفع الواقع فى عهد عمر رضى الله عنه ليلتقى مع مبادىء الاسلام وأصوله فى صورة واقعية تناولت شتى نواحى الحياة وجوانبها ولا زال هذا الواقع باقيا على الزمن متربعا على قمة سامقة يعز اللحاق بها ، ويستحيل الوصول اليها وكأنما أراد الله لتلك القمة أن تبقى خالدة على الزمن يرجع اليها كل من أراد أن يقيم الدول ويبنى قواعد النظام على أساس ما جاء به الاسلام .

ولقد صور حذيفة رضى الله عنه فى أبلغ صورة وأصدقها ما حققه عمر للاسلام منذ اسلامه ، وما حل بالاسلام يوم قتله فقال :

« لما أسلم عمر كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد الا قربا ، فلما قتل عمر كان الاسلام كالرجل المدبر لا يزداد الا بعدا » (٢) .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١١٧ — ١١٨ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١١٥ .

وحقا لم يسمع الناس فى طول دنياهم وعرضها بحاكم مثل عمر ، استحالت أمام ناظريه كل أبهة السلطان وجاذبيته وبذخه الى جمر ملتهب ، ونارا تتلظى يتوقاهما أكثر ما يكون التوقى ، ويحاول الفرار منهما لو يجد للفرار سبيلا • حاكم على قدر ما وفى من حقوق لله وحقوق للبشر ، وعلى قدر ما تفوق على نفسه فأذلها ، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالا شديدا آهة مظلوم ، أو أنة مسكين ، أو صوت انكار ، أو بكاء صبى ، أو نداء مسكين أو سؤال شيخ عجوز فان أو استغاثة قاص من الناس أو دان •

ومع كل هذا دخل عليه عبد الله بن عباس حين طعن فقال له : أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين ، أسلمت حين كفر الناس ، وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خذله الناس ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ، ولم يختلف فى خلافتك اثنان ، وقتلت شهيدا فقال :

أعد على • فأعاد عليه • فقال عمر : والله الذى لا اله غيره لو أن مافى الارض من صفراء وبيضاء لى ، لافتديت به من هول المطلع (١) •

وساعة كان يستقبل الموت يقول لابنه عبد الله :

« يا عبد الله ، خذ رأسى عن الوسادة وضعها فوق التراب ، لعل الله ينظر الى فيرحمنى » (٢) •

ولعل فى هذه العجالة عن دستور الحكم وأهمية الحاكم فى القيام بواجبات العبودية كما وضع أصولها عمر العظيم متبعا وليس مبتدعا ، ما يبرز أهمية الحاكم فى الوفاء بواجبات العبودية اذا خلصت النيات وصدقت العزائم من أجل استئناف حياة اسلامية جديدة على أساس ما جاء به الاسلام من أصول وأحكام ، فبعدل وقوة الحاكم يقبل الاسلام ، وبضعف الحكم وغلبته على الحاكم يدبر الاسلام مع عظم الجرم وفداحة الذنب وجلل المصائب التى تلحق الاسلام والمسلمين •

---

(١) مختارات من اسلاميات خالد محمد خالد ص ٨٠ .
(٢) الخراج لأبى يوسف ص ١٣ .

ومع الرغبة فى تبيان أهمية الحاكم فى القيام بواجبات العبودية ، ومدى ما يمكن أن يقدمه للاسلام والمسلمين ، فى عزتهم من بعد هوان ، وفى قوتهم من بعد ذلة وامتهان ، وفى تبوئهم مكان الامامة والصدارة من بعد تراجع ونسيان ، وفى الاخذ بيد الاسلام والمسلمين الى مكان الاشراف والسيادة والقيادة بالنسبة لامم الارض وشعوبها وتوجيهها والاخذ بيدها الى حيث الامن والطمأنينة والسلام ، اقول ان تبيان ذلك يظهر قويا أخاذا فى الفترة التى تولى أمور المسلمين فيها عمر بن عبدالعزيز معجزة الاسـلام حيث حاول نقل عصر الوحى بكل ما فيه من روعـة وجلال الى دنيا تجلت فيها نوازع الاهواء والاغراض ، الى دنيا أخذت من الناس دينهم ، ثم اذ هو ينجح نجاحا يبهر الالباب ، فتحولت الحياة فى عهده ، وكأنما هى جزء لا يتجزأ من فترة الخلافة التى تولى أمور المسلمين فيها عمـر بن الخـطاب الخليفـة العظيم وثـانى الخلفـاء الراشدين ، من حيث ان الخليفة متبع لكتاب الله وسنة رسوله وليس بمبتدع ، ومن حيث الوضوح فى الهدف ، والاخلاص فى العمل

ولعل اهمية تلك الفترة ترجع الى الاعتبارات التالية :

اولا : ان العصبية اطلت برأسها فى عهد الدولة الاموية فعادت الامور كما كانت ولمن كانت ، فبنيت تلك الفترة على العصبية وتعامل الناس بالحميـة ، فأخذ الله القلوب عن الألفـة ، ونشر جنـاحا من التقاطع فصارت الخلائق عزين فى كل واد من العصبية يهيمون .

ثانيا : ان المقاصد خرجت عن الدين الى الدنيا ، وعن الحق الى الهوى ، فخضع الحكم للاهواء والشهوات والاغراض ، وغشيت الناس غاشية من الاثرة والانانية البغيضة ، فالكل يعمل على حظه ونصيبه ، ولو تنافر مع الدين وخرج عن القيم والموازين ، فظهر الثراء الفاحش والترف الناعس .

ثالثا :

وكان ما سبقت الاشارة اليه سببا مباشرا لانحسار الروح الاسلامى وفقدان وازع الضمير الذى لازم الجماعة الاسلامية فى عصر الخلافة الى أن قامت الحروب الطاحنة بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، تلك

الحروب التى كلفت الدولة الاسلامية من شرفها وسمعتها ، وتضحياتها ، ومواقف جهادها ، الشيء الكثير وكانت بداية للتفرق والانقسام الذى أصاب الدولة الاسلامية ، كما كانت السبب الاول فى الفتنة الكبرى التى أودت بالروح الاسلامى ، الذى ابتدأ انحسار مده بتولى الامويين مقاليد الامارة على المسلمين •

تلك هى أظهر الاعتبارات التى فرضت الحديث عنها لتبيان أهمية الحاكم فى القيام بواجبات العبودية لله فى الارض وهى اعتبارات تحتاج الى أقوى الايدى وأنفذ الاوامر لاستخلاص حقوق الله وحقوق الامة وحقوق سائر المسلمين ، وهو ما تم فعلا فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذى انتصف من نفسه كما انتصف من غيره وتجلى أروع منظر لسلطان الدين فى عهده • لقد كان أول عمل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه هو رد المظالم الى أهلها ، ورد المظالم والانتصاف للمظلومين من الظالمين هو بلاشك من أخطر ما يواجه الحكام ، ولكنه رضى الله عنه أخضع السلطات التى تخولها النظم للحاكم خضوعا كاملا لحقوق الناس ، فأخذ فور توليه أمور المسلمين النظر فى أمورهم ورد المظالم الى أهلها أيا كانت الايدى الظالمة وأيا كانت منازل الظالمين ، وأيا كانت درجاتهم قربا أو بعدا من أمير المؤمنين ، حتى كان همه بالناس أشد من همه بأمر نفسه •

فلما استخلف عمر بن عبد العزيز مكث شهرين مقبلا على بثه وحزنه لما ابتلى به من أمور الناس ثم أخذ فى النظر فى أمورهم ورد المظالم الى أهلها حتى انقضى أجله • فلما هلك جاء الفقهاء الى زوجته يعزونها ويذكرون عظم المصيبة التى أصيب بها أهل الاسلام لموته • فقالوا لها : أخبرينا عنه فان أعلم الناس بالرجل أهله ، فقالت : والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صياما ، ولكن والله ما رأيت عبدا لله كان أشد خوفا لله من عمر • كان رحمه الله قد فرغ بدنه ونفسه للناس فكان يقعد لحوائجهم يومه فاذا أمسى — وعليه بقية من حوائجهم — وصله بليلته فأمسى يوما وقد فرغ من حوائجهم فدعا بمصباح قد كان يستصبح به من ماله ، ثم صلى ركعتين ثم أقعى واضعا يده تحت ذقنه تسيل دموعه على خده ، فلم يزل كذلك حتى برق الفجر فأصبح صائما • فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لشيء ما كان منك ما رأيت الليلة ؟ قال : أجل ، انى قد

وجدتنى وليت أمر هذه الامة أسودها وأحمرها فذكرت الغريب القانع الضائع ، والفقير المحتاج ، والاسير المقهور وأشباههم فى أطراف الارض ، فعلمت أن الله تعالى سائلى عنهم وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حجيجى فيهم ، فخفت أن لا يثبت لى عند الله عذر ، ولا يقوم لى مع محمد صلى الله عليه وسلم حجة ، فخفت على نفسى ، ووالله ان كان عمر ليكون فى المكان الذى ينتهى اليه سرور الرجل مع أهله فيذكر الشىء من أمر الله فيضطرب كما يضطرب العصفور قد وقع فى الماء ثم يرتفع بكاؤه حتى أرفع اللحاف عنى وعنه رحمة له ، ثم قالت : والله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة بعد ما بين المشرقين (١) •

ليس هذا عجيبا من حاكم ولاه الله أمور المسلمين ، ليقيم شرعه وأمره فيهم ويوفر لهم حياة حرة كريمة تليق بكرامة الانسان ، حياة سيسأل عنها يوم القيامة ، وما أصعبه من يوم ، وما أعقده من سؤال •

وتحت وقع مسئولياته التى قدرها حق قدرها وعلم أنه مسئول عنها ومحاسب عليها يوم القيامة ، حيث تسقط الاقنعة الزائفة ، والشعارات الفارغة الجوفاء ، وتند الرؤوس عن كواهلها من هول المطلع وعظم المصيبة ، أقول تحت وقع تلك المسئولية ، جرد عمر بن عبد العزيز نفسه من كل مظاهر الحياة حتى العادية منها ، فبعد أن كان الامير الأموى يرفل فى الحرير وتحيطه من كل مكان أبهى مظاهر العظمة وأبهة الملك كأمير ، فاذا به وقد عهد اليه لتولى أمور المسلمين ، يهجر حياة البذخ والترف ، ويضع تحت قدميه أبهة الامارة والسلطان فينقلب انسانا آخر فى مطعمه وملبسه ومأكله ومسكنه ، فتفوق على نفسه ، تفوقه فى اقامة ما تهدم من واقع الاسلام فى عهد بنى أمية •

قال شيخ رأيت عمر بن عبد العزيز بالمدينة وهو من أحسن الناس لباسا ، وأطيبهم ريحا ، ومن أخيلهم فى مشيته ، ثم رأيته بعد أن ولى الخلافة يمشى مشية الرهبان : قال الشيخ لمحدثه : من حدثك أن المشية سجية فلا تصدقه بعد عمر بن عبد العزيز (٢) •

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٦ — ١٧ •
(٢) الخراج لأبى يوسف ص ١٧ •

وعن محمد بن كعب القرظى قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بعث الى وأنا بالمدينة فقدمت عليه ، فلما دخلت عليه جعلت أنظر اليه نظرا لا أصرف نظرى عنه تعجبا . فقال : يابن كعب انك لتنظر الى نظرا ما كنت تنظره الى قبل .. قلت : ما حال من لونك ونحل من جسمك ، وعفا من شعرك . قال : فكيف لو رأيتنى بعد ثلاث وقد دليت فى حفرتى وسالت حدقتاى على وجنتى وسال منخراى دما وصديدا لكنت لى أشد نكرة . (١)

ومن أجل هذا ومن اللحظة التى طوقته فيها المسئولية خضعت السلطة خضوعا مطلقا لحقوق الناس على أساس من العدل والحق حاملا مسئولية القدوة الحسنة ، فاندفع يصفى الامتيازات ويستخلص الحقوق لاصحابها ويفسد على بنى أمية تقاليدها العريقة الموروثة ، دافعا بهم جميعا على طريق الحق ، والعدل ، أحبوا أم كرهوا ، رضوا أم سخطوا ، استسلموا وانقادوا أم تمردوا وطغوا .

ووفاء لمسئولية الحكم واستجابة لدواعى الحق والعدل وابراء لمسئولية الحساب يوم المعاد حمل ولاته على مقتضى سياسته فكان يرسل الرسل وراءهم يتقصى أخبارهم ويسأل عن سيرتهم فى الرعية .

فعن رباح بن عبيدة قال : كنت مع عمر بن عبد العزيز فقلت له : ان لى بالعراق ضيعة وولدا فأذن لى يا أمير المؤمنين أتعاهدهم قال : ليس على ولدك بأس ولا على ضيعتك ضيعة . فلم أزل به حتى أذن لى . فلما كان يوم ودعته قلت ياأمير المؤمنين حاجتك أوصنى بها . قال : حاجتى أن تسأل عن أهل العراق وسيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم فلما قدمت العراق سألت الرعية عنهم فأخبرت بكل خير عنهم . فلما قدمت عليه سلمت عليه وأخبرته بحسن سيرتهم فى العراق وثناء الناس عليهم ، فقال « الحمد لله على ذلك لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم استعن بهم بعدها أبدا .. ان الراعى مسئول عن رعيته فلابد له من أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ويقربهم اليه فان من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم (٢) .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٦ .
(٢) الخراج لأبى يوسف ص ٢١٩ .

كتب بعض عمال عمر عبد العزيز اليه : ان مدينتنا قد خربت فان رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالا نرمها به فعل ، فكتب اليه عمر : اذا قرأت كتابى هذا فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام[1] .

وكتب الجراح بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز ، ان أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم ، وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى ذلك فكتب اليه عمر : أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم ، وأنه لا يصلحهم الا السيف والسوط ، فقد كذبت ، بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام[2] .

واذا كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد واجه واقعا أمويا مجافيا لروح الاسلام ، ممعنا فى التنكر للحق والعدل والضمير ، فانه استطاع أن يحمل بنى أمية على مر الحق ، ويسير فى سياسته سيرا حثيثا عادلا متزنا متوازنا مبتدئا بنفسه ضاربا أرقى ما يمكن تصوره من القدوة الحسنة لغيره متمثلا العهد الذى سار عليه الحكم فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، حيث خرجا من الدنيا بلا شىء ، تزينت لهما فأعرضا عنها ، وطلبتهما فرفضاها ، وهكذا فعل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

وتحقيق القدوة بالنسبة للرعية فى مجال الحكم هى العلامة البارزة لكل حكم يقوم على العدل ويعمل للحق .

وثانى ماسار عليه عمر بن عبد العزيز فى سياسته رغم ثقل التبعة وعظم المسئولية فى مجتمع يسوده سابق العادات وسالف الموروثات المنافية والمتنافرة مع الدين هو اعتماده على القوة فى غير تشدد وعلى اللين فى غير ضعف .

ففيما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن ابنه عبد الملك قال له : « مالك لا تنفذ الامور ؟ فوالله ما أبالى لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق »

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٢ .
(2) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤٢ .

قال عمر : « لا تعجــل يا بنى ، فان الله ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة ، وانى أخاف أن أحمــل الحق على الناس جملـــة ، فيدفعوه جملة ويكون من ذا فتنة »[1] .

ودخل عبد الملك على أبيه فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربك غدا اذا سألك فقال : رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سنة فلم تحيها ؟ فقال أبوه : رحمك الله وجزاك من ولد خيرا . يا بنى ان قومك قد شدوا هذا الامر عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقا يكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يراق فى سببى محجمة من دم ، أوما ترضى أن لا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا الا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة [2] .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنـــه يقـــول ؟ والله لاريدن أن أخرج لهم المرة من الحق ، فأخاف أن ينفروا عنها ، فأصبر حتى تجىء الحلوة من الدنيا فأخرجها معها ، فاذا نفروا لهذه سكنوا لهذه »[3] .

وهكذا وضع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يمينه فى يمين الحق ويمضى معه الى حيث يدمدمان معا على مظالم وظلمات الاعوام الستين التى سبقته فى الحكم الاموى والى حيث يجعلان ظلماتها نورا ، وهجيرها فردوسا ، وترفها قناعة ، وانحلالها ورعـــا ، واســـتعلاءها تواضعا ، وقهرها رحمة ، ورعبها أمنا . وبين يدى عزمه الربانى القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة والتحدى :

« والله لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الا بتقطيع أوصـــالى وأعضائى لامضيت ذلك وأنا سعيد » .

« ووالله لو لبثت فيـــكم خمسين عـــاما ، ما فعلت الا ما أريد من العـــدل »[4] .

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة للشاطبى جـ ٢ ص ٩٣ ـــ ٩٤ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤٠ .
(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٣٥ .
(٤) مختارت من اسلاميات . خالد محمد خالد . عمر بن العزيز .

وفعلا أمات عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه البدع وأحيا السنن وأقام العدل وأرغم المجتمع الاموى العنيد على أن ينحو نحوا جديدا صوب الاسلام ، فرد الامر شورى بعد أن تعطل مبدأ الشورى مع بداية العهد الاموى ، وأعاد للمال قدسيته وحرمته بعد أن كان هملا مباحا للامويين ، فأخذه من حقه ووضعه فى حقه ومنعه من كل باطل ، وقدم الامناء القادرين ، وأبعد الضعفاء العاجزين ، ووزن الناس بموازين العلم والمعرفة وأسقط من الحساب أسباب الصعود المستندة الى القرابة والاحساب والانساب وبهذا أعاد للاسلام اشراقه وبعث فاعليته وايجابيته • ولكن المنية عاجلته بعد مدة زادت على العامين بقليل ، ولو امتد به الاجل مثلها لكان شأن المسلمين والاسلام غير ما نحن عليه الآن، ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شىء قدرا •

هذا ما أردت الاشارة اليه فى الخاتمة تركيزا على أهمية الحاكم فى القيام بواجبات العبودية لله فى الارض اذا خلصت النيات وصدقت العزائم من أجل استئناف حياة اسلامية على أساس ما جاء به الاسلام من مبادىء وأحكام •

أما ما أريد الحديث عنه أو بمعنى آخر الاشارة اليه هى الحقائق التالية لتكون أمام كل من يتصدى ويحمل على كتفيه أمانة القيام بواجبات العبودية وهى حقائق ترجع الى الاسلام والمسلمين وأخرى ترجع الى العالم المحيط والانظمة المختلفة التى تتحكم فى البشرية ، ونسوق ما سبقت الاشارة اليه فى جزئيات مستقلة يتعين أن تستقر فى وجدان المسلمين وهى :

أولا :

ان ما جاز على المسلمين فى الماضى وما حققوه لأمم الأرض وشعوبها من عزة وكرامة وتمكين مادى وعمرانى ، وسبق علمى وفكرى ، وما ضربوه للبشرية من مثل عليا فى التضحية والشجاعة والفداء بالنفس والمال ، والفناء فى الفكرة والومضات الروحية وغير ذلك من بطولات حية فى شتى مناحى الحياة وجوانبها ، كل ذلك غير ممتنع على المسلمين أن يحققوه فى الحاضر والمستقبل •

وامكانية العودة الى ماضى الاسلام والمسلمين ترجع الى :

١ ـــ ان البشرية كلها تتحرق شوقا الى نظام تجد فيه أمنها على الدماء والاعراض والانفس والاموال ، بعـــد أن عاشت قرونا فى ظل أنظمة تتابعت عليها الواحد اثر الاخر لم تشعـــر فى ظلهـــا بالامن والطمأنينة والسلام ، وان من يتتبع تاريخ البشرية الطويل يقرأ فى ضوئه الماضى ، يشعر بمدى ما ترددت فيه البشرية ومدى ما أصابها من محن ومصائب فى الانفس والاخلاق والاموال ، فالارواح قد تأسنت والضمائر تعففت ، والعواطف تبلدت ، والاموال أخذت من غير طريقها المشروع ، وانفقت سرفا وتبذيرا جهلا بمواقع الحقوق ومقـــــاديرها والدنيا قد خلت من كل ما يوفر السعادة للانسان ماديا ومعنويا فظهرت عليهـــا علامات الشقوة واستحكم مرض القلب واشـــتد ألمه بالذنوب والآثـــام .

وبالجملة فالدنيا بأسرها فى حاجة الى العدل على مستوى الفرد وعلى مستوى الاسرة وعلى مستوى الملك ، والاسلام ليس الا دعوة الى العدل والتسوية فى المعاملة على أساس ما لكل من قدرات طبيعية ومكتسبة وكفى به عدلا أن يكون من عند الله .

٢ ـــ ان المسلمين يملأون بقاع الارض ويساهمون رغم ما أصابهم فى صنع التاريخ ، ولا زالوا أبر الناس قلوبا وأقلها تكلفا ، وأكثـــرهم استشعارا لمعانى الانسانية ولطبيعة الروابط التى تربط القبائل والشعوب والامم وهى روابط التعارف والتآلف وليست روابط التناكر والتشاحن والتباغض .

ومن هنا فان احياء الصبغة الاسلامية ؟ صبغة الله : « هو سماكم المسلمين » : يجب أن تميز الدول الاسلامية وأن تكون شعارا يرفعـــه المسلمون والدول الاسلامية مستغنية عن كل شعار آخر ترفعه الدول الاسلامية كحيلة من حيل الحكم او تدبير من تدابير السياسة وهـــذه الصبغة ضرورة ملحة تقتضيها رسالة الاسلام . تستطيع الدول الاسلامية ان تقيم العلاقة بينها على أساسها وتستطيع، أن تميز عدوها من صديقها، وهـــذه هى نقطة البدء من أجل تجمع اسلامى عالمى نقطة ارتكازه هى

العقيدة الاسلامية ، ينطلق المسلمون منها للدفاع عنها ، ويرجعون اليها يحتكمون اليها فى كل ما يتنازعون فيه ويختلفون عليه • وعلى هذا الاساس تنتهى المآسى والمهازل التى لا تنتهى وتزول اسباب الفرقة والاختلاف التى تثار من حين لآخر ، وهكذا ينظر المسلم الى المسلم بعين الاخاء الاسلامى ، وتتعامل الدول الاسلامية ، ووجهتها واحدة ومقصودها واحد وهو الاسلام والتمكين لاحكامه •

ثانيا : اما ما يرجع الى العالم المحيط بالاسلام والمسلمين والانظمة التى تقتسم العالم ،فيجب على من يتصدى للقيام بواجبات العبودية ان يدرك تمام الادراك الحقائق التالية :

١ ــ اننا نعيش اليوم فى مجتمع دولى عنيد لا يؤمن الابالقهر والغلبة وتسوده أنظمة ركبت متن الشطط فى تعاملها مع غيرها من دول الارض المستضعفة والمغلوبة على أمرها ، لا بديل أمامها فى إخضاع غيرها وابتزاز ثرواتها غير قوة السيف عندما تخونها اساليب الخداع والمكر ، وتفتقر الى تدابير السياسة والمراوغة ، دون أن يردها عن غيها وازع من ضمير أو أدنى شعور بوحدة الاصل ووحدة المصير التى تشترك فيهما البشرية كلها من أصلها الى منتهاها •

وعلى هذا الاساس يجب أن يتوافر من أبناء المسلمين صنف منهم يستطيع التعامل مع هذا المجتمع الدولى العنيد صنف يتذكر دائما مظالم السنين السابقة التى لحقت بالمسلمين والاسلام على أيدى هذا المجتمع كما يجب أن يستقر فى وجدان المسلمين أن اسلامهم هو هدف الأنظمة المختلفة بقصد تعطيل أحكامه واستبعاد أبنائه ، وهو هدف تحقق وشعر به الجميع فى الماضى ، كما أنه هدف ظهر جليا واضحا فى الحاضر ، ولا ريب أن هذا الهدف هو جزء من مخطط متطاول مع الغد بقصد النيل من الاسلام والمسلمين فى المستقبل •

ولا شك أن مسئولية مجابهة هذا المجتمع الدولى شاقة ومريرة تحتاج الى كثير من التضحيات والمسلمون يواجهون الانظمة البشرية التى تقتسم

(١) دعاء الثورة للسيد / حسين الشافعى ــ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

الدنيا بأسرها الآن وتتهدم فى مقاديرها وتسومها الخسف والهوان بطرائق سافرة ومستترة عن طريق الغزو الفكرى والشحنات العاطفية تلهب بها الأنظمة المختلفة دماء الشعوب وعن طريق الاستمالة أحيانا وعن طريق العنف والقسوة فى كثير من الاحيان حتى أصبحت الحياة على وجه الأرض جحيما لا يطاق .

ويصور هذا المعنى أبلغ تصوير وأصدقه السيد — حسين الشافعى فى خطبة الجمعة بالمسجد الحسينى بتاريخ ١٠ اكتوبر سنة ١٩٥٢ حيث يقول :

« ماذا تظنون أن يعمل محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، لو بعث اليوم ؟ ماذا تظنون أن يصنع بالمسلمين وهم من الضعف والهوان والاستكانة كما نعلم ، أترونه يبدأ الطريق بجمع حكام المسلمين فى مؤتمر فيخطبهم مثلا ويوجههم ؟ — أم ترونه يطوف بأرجاء العالم الاسلامى على اتساعه وامتداد رقعته من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ليبشر برسالة الرحمة والنور من جديد ؟

« ألقيت السؤال يا اخوانى ، فعجب صحبى ، ولم أنتظر منهم جوابا ، بل تصورت أن صلوات الله وسلامه عليه ، لن يعمل غير ما عمل فى بدء دعوته ، هذه الدعوة التى كانت وما تزال ، وستظل ، أروع إنقلاب ، وأخلد ثورة تحررية فى تاريخ البشرية ، اعتقد انه لو بعث الآن ، لبدأ الكفاح من أول الطريق ، انه سيبحث له عن أبى بكر يطمئن اليه ، ويصدقه القول والعمل والتضحية ، سيبحث عن عمر ليحارب به اعداء الدعوة الى الحق والقوة والرحمة ، وسيسعى اليه على ليقود الشباب ويعلمه انكار الذات والفداء فى أسمى صوره ، وسيأتى اليه عثمان ليكون مثلا للانفاق فى سبيل الله ، سيبحث النبى الكريم عن امثال هؤلاء الرواد وعن صحابة يطمئن اليهم ويطمئنون اليه ، فيكونون لسانه فى الدعوة يتعلمون منه الكتاب والحكمة مصداقا لقوله تعالى : « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » ، « ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . وبهؤلاء النفر القليل وحسب النبى ربه ومن اتبعه ، سيبدأ عمله فى القضاء مرة اخرى على الجاهلية التى نعيش فيها اليوم ، ونشقى بها ونهون على أنفسنا وعلى الناس .

« أيها الناس : ان الجاهلية فى عصرنا هذا ، لهى اشد وأنكى وأمر من الجاهلية الاولى ، ففى المسلمين كثير اعرضوا عن ذكر ربهم ، فجعل معيشتهم ضنكا وسيحشر كل منهـم يوم القيـامة أعمى « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

« اننى لمشفق على كل مصلح يقوم اليوم ليبدأ كفاحه فى هذه المحن التى نقاسيها من أنفسنا ، فان أمام هذا المصلح جبهات متعددة يجب أن يستعد لها فى عزم واصرار ، لا تقذف به الاهواء ، ولا تندفع به العواطف ولا يتطرق الى نفسه اليأس لانها رسالة يجب أن تتحقق مهمـا كانت التضحية ومهما كان الفداء ، وان البناء اليوم يحتاج الى عناء مضاعف ، فانه ليس بناء فحسب بل ازالة وتطهير وبناء واقـامة ، يجب أن تزول الانقاض حتى يقوم الصرح الجديد ، ولا يعوقه عائق ، بل ينطلق انطلاقا على أساس صلب متين دعامته الايمان وسنده القوة .

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ؟ » .

هذا ما أردت الاشارة اليه ، مجتمع دولى عنيد ، كل شىء فيه فى غير مكانه ومحله الصحيح ، ذابت فيه أسس الفضيلة ، وانهـارت دعـائم الاخلاق ، واختل ميزان العدل ، يبذل فيه الباطل حتى يفتدى منـه ، ويحبس فيه الحـق حتى يشترى شراء ، وبالجمـلة اختلت كل القيم والموازين وتوارت المثل العليا من حياة البشر .

وعلى هذا فمسئولية اقامة واجبات العبودية لله فى الارض دعامتها الايمان وسندها القوة ، وهذا ماأشار اليه رسول الرحمة .

« أنا نبى الملحمة » .

كما قال عليه الصلاة والسلام .

« انا الضحوك القتال » .

وقال تعالى :

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » •

فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف • وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا — يعنى المصحف » (١) •

هذا ما أردت التركيز عليه فى خاتمة البحث ونهايته وهو أن سلطة الحاكم حيث توجد القدرة والغلبة والاستطالة تستطيع أن ترد الشاردين الى حظيرة الدين واعادة ما تهدم من واجبات العبودية بما يملكه من قدرات وممكنات ليست ميسرة ومتوافرة لدى ما سواه من مجموعة المؤمنين •

ولا شك ان الوفاء بهذا الواجب يحتاج الى الجدية والشجاعة فى حمل تلك الامانة ولا سبيل أمام الحاكم الا منطق القوة يأخذ بها أبناء المسلمين لجمعهم حول عقيدتهم ، ويطارد بها أعداء الله وأولياء الشيطان ، واستعمال القوة على هذا النحو هو استجابة لواجب يفرضه الدين ، لان المسلمين والاسلام اليوم فى وقت لا يعرف الا شريعة السيف ، كما أن العالم اليوم يعيش فى ظل أنظمة تبيح الحرب بغير علة او بلاغ •

لذلك فليس أمام حكام المسلمين الا منطق القوة العادلة يعدون عدتها ، ويأخذون بأسبابها بعد أن أصبح منطق القوة الصريح هو شريعة الأنظمة المختلفة فى معاملة دولها لبلاد المسلمين حيث خصوها بالغدر وأفردوها بالعداء الذى ليس فوقه عداء ، ولهذا أرى أن القوة أصبحت الامل الباقى والملجأ الوحيد أمام جماعة المؤمنين سواء فى رد الشاردين الى حظيرة الدين ، أو دفع المتربصين بهم وباسلامهم •

وعلى هذا فالقوة فى الاسلام ليست مطلوبة للسيطرة على الضعفاء أو سلاحا يستعمله الاقوياء للغلبة والاستعلاء ، انما هى آية من آيات

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٦ — ٢٧ •

الحرية ، ودعوة الى استنقاذ البشرية مما تردت فيه من ذل وعبودية فهى قوة رحيمة ، تساند حقــا ، وتستخلص حرية ، وتطهر نفوسا من أدران الشرك والوثنيــة ، وترد أخرى الى حظيرة الايمان ومــكانة العبودية لله •

وسلطة الحاكم ليست بمغنية وحدها ، بل يجب أن يواكبها ركب العلماء بحيث لا يتخلف الاثنان ولا يفترقان ، فالعلماء هم أركان الملة ، ودعائم الشريعة الناصحون لعباد الله • فهم كالمشاعل على الطريق ينيرون الطريق للسالك ويفتحون أمامه المسالك ويربطون الحاضر بالسابق لانهم أقرب الناس الى مصادر النور وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وعمل الخلفاء الراشدين فى قيامهم بسياسة الدين وفى قيادتهم لجمـــاعة المؤمنين •

ولا شك ان البشرية التى قفزت قفزة ضخمة عالية فى أثناء موجة الاسلام الاولى وعاشت فى ظل أحكامه أجمل أيام حياتها — فدين متبع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دار ، وأمل فسيح — هذه البشرية بعد أن خاضت تجارب حزينة رهيبة فى ظل أنظمة بشرية أكثر استعدادا اليوم لان تعيش فى ظل نظام أكثر استجابة لضميرها ولن يكون هذا النظام الا الاسلام باعتباره النظام الذى يخاطب النفس البشرية والضمير الانسانى فى كل مكان ، وباعتباره النظام الكامل الذى جاء ليقود البشرية الى نهايتها ، وباعتباره أخيرا النظام الذى يلبى كل أشواق البشرية وتطلعاتها كلما ارتقت ، وكلما جربت ، وكلما اتسعت مداركها على مدى الاجيال والعصور حين يفهم على حقيقته ، وحين يوجه وجهته ، وحين يسلك الناس طريق الحق القويم •

واذ ننتهى من هذا الاجمال الذى سقناه فى خاتمــة البحث ، فان الواجب يفرض علينا أن نسوق بعض التحديدات التى نعتبرها أساسيات فى مجال الحديث عن واجبات العبودية لله ، وهى فى الحقيقة لا تخرج عن أن تكون اجتهاد شريف ، وحسب المرء أن يجتهد مخلصا ولو كان من الخاطئين • وهذه التحديدات ترتبط بما هو واجب على الحاكم المسلم أن يفعله فى سياسته لجموع المحكومين وشاء الله له أن يجعله أكثر حملا وأكثر تبعة أمام الله وأمام الناس وأمــام ضميره ، كما ترتبط هــذه

التحديدات بما ينبغى أن يؤديه العلماء ورثة الانبياء ، باعتبار أن الحكام والعلماء أظهر العناصر البشرية التى على قدر دورها وعلى قدر اخلاص النية لله فى القيام بواجبات العبودية لله ، تظهر القدوة الحسنة ، وينبعث الحياء فى نفوس المسلمين قويا أخاذا ، الحياء مع النفس ، ومع الناس ، ومع الله ، وهو الركيزة القوية والعروة الوثقى التى يعتصم بها المسلم بين زعازع المحن التى ابتليت بها الانسانية فى هذا الزمن العصيب •

وعن التحديدات التى أردنا ان نخصها بالذكر مرتبطة بسلطة حاكم المسلمين فى أى بلد اسلامى نسوق ما يلى كواجب يفرضه الدين وتمليه المصلحة العليا لجماعة المسلمين •

تحديدات مرتبطة بواجبات الحكام

اولا : تحقيق التشابه بين المسلمين :

لقد كان للتربية الحكيمة التى أخذ بها النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين ، وللايمان الواسع العميق الذى قر فى نفوسهم، وصدق اليقين الذى امتلأت به قلوبهم ، وفهمهم لحقيقة دنياهم من أنها جسر موصل لحياة أخرى لانتقاس بملايين السنين لانها الخلود ، لقد كان لكل تلك الحقائق أن تكونت كتلة بشرية متزنة عاقلة رشيدة لا مكان فيها للأهواء والاغراض ، ولا مجال فيها للأثرة والأنانية ولا اختلاف بين آحادها على الغاية والهدف ، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحى الانسانية ، كتلة هى فى غنى عن العالم وليس العالم فى غنى عنها ، كتلة ظهرت فيها الكنوز والعجائب ، وتفجرت فيها القوى والمواهب ، فكان منها كما سبق أن قلنا الحاكم العادل العالم المشاور ، والجندى القوى ، الذى يعف عند المغنم ويتقدم عند المعركة والقائد المقدام الشجاع ، وصاحب الولاية العفيف لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ما حفظ من حــق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، ينصف المظلوم ويشتد على الظالم ، القوى والضعيف والقريب والبعيد عنده فى الحق سواء •

ولقد استطاعت تلك الكتلة المؤمنة العاقلة أن ترغم العالم العنيد على أن ينحو نحوا جديدا ، كما استطاعت أن تعزل الأمم المريضة من زعامة الانسانية ، وتسمع الشعوب المستضعفة صوت السماء ، بعد أن عاشت أزمانا ذاقت فيها ذل العبودية ومهانة الحرمان •

ولقد استمرت تلك الكتلة فترات طويلة تغذى الانسانية بالعنــاصر البشرية الفذة التى أضاءت لها ما أظلم من حياتها فكانت تلك العناصر بحق حفاظا للبشرية وعصمة لها من التصدع والانهيار • ولكن المسلمين مع ابتعادهم عن ادراك حقائق دينهم ، وغفلتهم عن ثقل التبعة وجسامة

المسئولية التى يحملها كل من انحاز الى الاسلام ، نسوا ما ذكروا به ونازعوا أهل الدنيا دنياهم ، وغفلوا عن طاعة مولاهم ، فأصابهم ما أصابهم ، وحل بهم ما أثلج صدور أعدائهم ، الى أن تم انتزاع الامامة والقيادة منهم ثم تلا ذلك أن تداعت أمم الارض عليهم ، يسومونهم الخسف والهوان ، ويذيقونهم كأس المهانة والحرمان ، الى أن أتى على المسلمين زمان ـ على النحو المعروف تاريخيا ـ وكل دولة اسلامية واقعة فى قبضة غيرها من دول الارض وكأنما هى سمكة ابتلعت طعما لا تستطيع أن تتخلص من قبضة الصياد الماهر •

وكان من الطبيعى أن يلتقى المسلمون بكل تراثهم الروحى وكـل مقوماتهم الفكرية ، عن قصد منهم أحيانا لجهلهم بحقائق دينهم وعدم ادراكهم لعظمته ، او تشبها بمن غلبهم أحيانا أخرى ، أو ضعفا منهم فى مقاومة المتسلطين عليهم فى أغلب الأحيان ، وتفصيل ذلك أن كل دولة من الدول التى تولت الامور فى دولة اسلامية عن طريق القهر والغلبة وسيطرت على مقاليد الامور فيها ، كانت تسوقها الى اعتناق مبادئها والدعاية لها عن طريق التشريع والتقنين ، وعن طريق الاستمالة مرة والتهديد والقهر مرات ، وعن طريق التشكيك فى ماضيها بكل حقائقه ومعتقداته فى معظم الاحيان ، وقد كانت محصلة ذلك أن ابتعدت المجتمعات الاسلامية عن ضميرها فى التشريع والاخلاق والعادات والمعاملات حتى أصبح من أبناء المسلمين أنفسهم من هم فى عون الغالب ونصرته حتى أصبحوا عونا للزمان على الاسلام والمسلمين متناسين تماما عظم الذنب وفداحة الجرم وما ينتظرهم من مقت الله وغضبه بسبب موالاتهم لاعدائهم وأعداء الله وأعداء دينه مع فقدانهم ما يميز المسلم الحقيقى وهى الغيرة على دينه والانتصار له مهما كان الثمن ومهما كانت التضحية •

وخلاصة ما سبق أن عرضناه أن تكونت فى كل دولة قامت باسم الاسلام نظام اجتماعى فى غاية السوء اختلفت مظاهره ومسالكه فى كل دولة اسلامية ، وتكون نمط من العلاقات الاجتماعية المتنافرة والمتنافية مع ماضى المسلمين ، بل ومع أنظمة الدول التى غلبت على الدول الاسلامية ، الامر الذى فقد فيه المسلمون التشابه بين الآحاد المتفرقة

حيث أصبح لكل فرد وكل جماعة ولكل دولة اسلامية وجهة هى أبعد ما تكون عن ضميرها وعن سابق ماضيها ، ومن وراء ذلك محتل غاصب يعمق الفجوة بين الماضى والحاضر ، ويأخذ بيد المسلمين ليضربوا وجوه بعضهم البعض ، وفق مخطط محكم مرسوم متطاول مع الغد ، مستمر مع الزمن •

لذلك فان نقطة البدء اذا أراد العالم الاسلامى أن يستأنف حياته ويتحرر من رق غيره هو تحقيق التشابه بين المسلمين ولن يتحقق التشابه الا على أيدى أصحاب الولاية العليا على المسلمين بما يملكونه من قدرات ومكنات ليست متوافرة لسائر الناس ، والطريق الى تحقيق التشابه •

١ — ان العالم الاسلامى صاحب رسالة الهية واضحة جلية ، لن ينهض الا بها ، ولن يستعيد مجده وعظمته الا باحيائها ، ولم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها ، والعالم اليوم فى القرن العشرين محتاج اليها كما كان محتاجا اليها فى القرن السادس الميلادى •

والبشرية الآن رغم ما أحرزته من نجاح مادى واتساع عمرانى ، وتقدم علمى ، أحوج ما تكون الى قيم روحية وأخلاقية تهذب من ديانتها المادية وتردها عن الاسترسال فى شهواتها ، بعد أن اختفى سلطان الضمير ، وأجدبت القلوب فماتت فى صدور أصحابها • يضاف الى ذلك أن اقامة النظام الاسلامى والتمكين لاحكامه مقرر الهى وأمر ربانى ليس لاحد كائنا من كان انحاز لحظيرة الاسلام أن يخالفه الى غيره من أنظمة أو يعطل أحكامه تحت أى شعار أو استنادا الى أى دعوى تتعلل بها النفس ، فاذا كان الامر كذلك ، فان تحقيق التشابه بين أفراد الامة الاسلامية لا يتم الا بتحديد نقطة الارتكاز ومركز الانطلاق ولن يكون هذا المركز الا العقيدة الاسلامية يحتضنها حكام المسلمين ويدعون اليها ، ويحمل لواءها فى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى بل فى كل أسرة اسلامية وفى بلد اسلامى « فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا » • وهنالك تفوح رائحة الجنة من جديد ، وتتجدد ذكريات الماضى بأشخاصه وحوادثه

وانتصاراته وفتوحاته وعدله وأمنه ، وأمله الفسيح ، فتتحدد ذكرى بلال فى صموده الذى تنوء بحمله الشمم الراسيات ، وخباب بن الارت فى وفائه النادر ، وخالد بن الوليد فى انتصاراته الفذة المتلاحقة ، وأبو عبيدة بن الجراح الذى طرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء وجعله يلقى عليها نظرة الوداع ويقول : سلام على سورية سلاما لا لقاء بعده ، وعمر بن الخطاب رمز العدالة فى تاريخ الانسانية ، وعمر بن عبد العزيز الذى رجع بالدولة الاموية العنيدة الى حظيرة الاسلام ، كما تتجدد ذكرى العلماء العاملون والائمة الافذاذ ، وتعود الى الظهور من جديد ذكرى الورع والزهد والعفة والنزاهة ، والتضحية والفداء ، والرغبة الملحة فى لقاء الله ، تحت راية الاسلام فى ساحات الشرف والاستشهاد • وبالجملة يعود للقرن الاول الهجرى روعته وعظمته فتتحد الوجهة ، وتتبدل الغاية ، ويتحدد الهدف وهو اعلاء كلمة الله فى الارض ، وتنسحب الانظمة التى قامت على القهر والغلبة والاستطالة من قيادة البشرية ليحل محلها النظام الاسلامى القائم على العدل والهداية •

ولا شك أن العقيدة الاسلامية بكل أبعادها وشمولها ، يمكن عن طريقها أن يتحقق التشابه بين مجموع المسلمين فى وقت فقد فيه المسلمون صبغتهم المتفردة التى أرادها الله لهم ، فلم يعد للاسلام من يرعى حقه ولا من يبذل نفسه دونه ، ولا من يفهمه حق فهمه •

وتحقيق التشابه عن طريق العقيدة سهل ميسور اذا خلصت النيات وصدقت العزائم ولن يحتاج الا الى رجعة قوية الى أسباب التمكين للنظام الاسلامى فى الفترة الفذة من تاريخ الاسلام وجماعها احتضان الدعوة الى الله ورفض كل ما سواها فى صرامة وصراحة كما عبر عن ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته • ولا شك أن احتضان الدعوة الى الله وتحقيقها فى الارض لن يتم الا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها المسلمون اليوم كما سبق أن قدمها اخوة لهم بالامس ، قال تعالى :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » •

كما يقول جل شأنه :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » •

وهنا يجب وضع قيم الحياة المادية والمعنوية موضع الابتلاء والاختبار ابتداء من لقمة العيش يحرم منها الانسان الى التضحية بالنفس وبذل الحياة كلها فى ميدان الشرف والجهاد ويقول تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله رسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » •

واذا تردد المسلمون فى حمل تلك التبعة الجسيمة وما تفرضه من تضحيات فتستمر الاوضاع السيئة فى العالم وفى هذا يقول تعالى :

« الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » •

وكما سبق أن أشرت فان حمل لواء الدعوة واحتضانها هى المسئولية الكبرى لكل حاكم مسلم بما لديه من قدرات ومكنات ليست متوافرة لسائر الناس وكفى قول الرسول عليه الصلاة والسلام « ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » •

وهذا أول واجب فرضه الاسلام على الحاكم وأشار اليه الامام الماوردى وهو :

١ — حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الامة ، فان نجم مبتدع أو زاع ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروسا من خلل والامة ممنوعة من زلل • ويتصل بذلك جهاد من عاند الاسلام بعد ادعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة ليقام بحق الله تعالى فى اظهاره على الدين كله (١) •

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٥ — ١٦ .

يضاف الى ذلك أنه بمجرد احتضان الدولة للدعوة الى الله فانها ستلاقى كثيرا من الاذى وستقابل بتحديات لا مثيل لها من أنظمة لا تؤمن الا بالقهر والغلبة باعتبار أن الدعوة الى الله التى هى دعوة الى عزة وكرامة الانسان المسلم واشعاره بمسئوليته الخطيرة فى هذه الحياة ، ستكون النذير بزوال تلك الانظمة وفضح سوآتها وافتضاح أمرها . وهنا نعيد الى الاذهان المواقف التى وقفها النبى صلى الله عليه وسلم وقد بدأ الدعـوة الى الله م الصـغر وموقف الخلفاء من بعد من امبراطورتى فارس والروم والانتصارات الهائلة التى حققهـا المسلمون رغم قلتهم القليلة ، ورغم كثرة أعدائهم الكثيرة حتى أشرق نور الحرية الوضاء فى عالم كان يسوده الظلام الدامس ، وما أشبه اليوم بالامس ، حيث أصبحت المدينة التى تعيشها البشرية الآن كجسم ضخم عملاق يملأ العين مهابة ورواء ، ولكنه يشكو فى قلبه آلاما وأوجاعا وفى صحته انحرافا واضطرابا ، يكفيه طعنة فى مقتـله وصميمه فاذا هـو هشيم تذروه الرياح .

ثانيا : استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء :

ومن بين التحديدات التى أرى ارتباطها بمسئوليـة الحـاكم المسلم استكفاء الأمناء وتقليد النصـحاء لتكون الأعمال بالكفاءة مضـبوطة والأموال بالأمانة محفوظة وأن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصـفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض فقد يخون الأمين ويغش الناصح .

ولا شك أن تقليد الأمناء على الأعمال والأموال يعتبـر من أخـطر الأمانات فى أعناق حكام المسلمين لا يقوم لهم عذر عند الله ، ولا تثبت لهم حجة ان هم خانوها أو قصروا فى الوفاء بها لارتباط ذلك ارتباطا وثيقا بحقوق الناس وحرياتهم ، ولاهميـة ذلـك فى التمكين للدولة الاسلامية وتثبيت قواعدها . وان من يتتبع فترات القوة والضعف التى لازمت الدولة الاسلامية ، يدرك مدى ارتباط فترات القـوة باسـناد الولاية على الأعمال والأموال للأمناء القادرين من أبناء الاسـلام ، وارتباط فترات الضعف باسناد الولايات للضعفـاء الخـائنين الذين لا يرجون حسنة ولا يستغفرون من سيئة .

وقد سبق أن أشرنا الى حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى يعتبر بما تضمنه من توجيهات جبال فى البيان ، وجبال فى السبب الى الحق ، عندما حذر من عاقبة اسناد الولايات الى غير أهلها وما يؤدى اليه ذلك من خراب أمر الأمة • ونعيد عرض حديثه صلى الله عليه وسلم باعتباره دستورا كاملا لكل من أراد أن يقيم الدول ويبنى قواعد النظام على أفضل ما يثبت دعائمها ويكتب لها التمـكين فى الارض ودوام البقـاء والاستمرار •

فعن أبى هريرة قال : بينما النبى عليه السلام فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال متى الساعة ، فمضى رسول الله يحدث • فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال • وقال بعضهم بل لم يسمع ، حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة ، قال أنا يا رسـول الله • قال : فاذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال كيف اضاعتها ، قال : اذا وسـد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة • (والمقصـود بالساعة هنا هو خراب أمر الامة بضياع حقوق الناس وحرياتهم) •

ولا شك عندى أن اسناد الولايات الى القادرين الامناء أرقى تبعة فى مجال الحكم وتدبير شئون الدولة •

ثالثا : الرجوع الى الأمة :

من أخطر المسئوليات التى يجب أن يرعاها الحاكم ولا يقصر فيها ضرورة الرجوع الى الامة باعتبارها صاحبة الوزن الحقيقى فيما يهم الشعب من أمور الـدين والدنيا كلما حزبه أمر أو نزلت بـه نازلة • ولا ينكر أحد أبدا أن المجتمعات الاسلامية عاشت أجيالا محكومة لغيرها ، محرومة من تدبير شئونها الداخلية والخارجية الامر الذى أصبحت معه عاجزة عن ادراك ما يصـلحها ، لذلك فان تكرار الرجـوع الى الامة واستخلاص الرأى منهم يوجد الظروف المناسبة لتعويد المسلمين على أن يبنى كل منهم لنفسه رأيا فى المسائل العامة وهذا وحده كفيل بايجاد الوعى فى الامة ، فلا تخضع لكل متسلط تشاء الاقدار أن يكون متوليا أمرها ولا تسكت على امتهان لكرامتها قد يحل بها •

كما أن تكرار الرجوع الى المسلمين واستخلاص الرأى منهم يوجد الظروف المناسبة لاحداث التغييرات السلمية التى يقتضيها النظام الاجتماعى دون الحاجة الى تفجير ثورات عنيفة واضطرابات قوية فى سير الحياة الاجتماعية ، علاوة على ما فى تكرار الرجوع الى المسلمين من تحقيق مصلحة السلطان بصفة خاصة فى استقامة ملكه وتوطيد حكمه .

ولقد حرص النبى صلى الله عليه وسلم حرصا تاما أثناء حياته على الرجوع الى المسلمين فى مسائل الحرب والسلم يأخذ الرأى منهم ويشركهم فى تبعاته ومسئولياته الامر الذى كان له الاثر القوى فى سلوك المسلمين كنموذج تربوى جادمخلص وخصوصا بعدوفاته حيث ترك عليه السلام جيلا من خاصة الصحابة وعامتهم على درجة عالية من الرأى والحكمة فى كل ما يمس شئون المسلمين الدينية والدنيوية .

وأود الاشارة أخيرا الى أن الدولة التى تصغر أبناءها ورجالها ليصبحوا مجرد أدوات طيعة لا حيلة أمامها وذلك عن طريق القمع والتخويف تارة وعن طريق الكبت وقتل المواهب تارة أخرى لا تستطيع أن تحقق أهدافا كبيرة سواء فى مجال السياسة الداخلية أو فى مجال السياسة الخارجية كما لا تستطيع أن تكسب معارك السلم ومعارك الحرب على السواء .

لذلك فان اعطاء العقول حقها من حرية الفكر ونتاجه ، واعطاء الالسن نصيبها من حرية القول ، واعطاء النفوس قسطها من الجرأة والشجاعة ، وقيام الدولة بغرس طبائع الخير والبر والوفاء والرحمة فى نفوس أبنائها ، واقتلاع طبائع الاغراض والاهواء والشهوات والاثرة والانانية ، كفيل بأن تتقلب النفوس فى مراتب العزة والكرامة وتتحقق الالفة والتماسك والوحدة والتضامن فيتقدس الهدف وتسمو الغاية ، وتسير المجتمعات الاسلامية سيرا حثيثا الى حيث الامن والطمأنينة والسلام .

رابعا : رد المظالم الى أهلها :

من أبرز ما يرتبط بمسئولية الحاكم المسلم رد المظالم الى أهلها أيا كانت طبيعتها . ولقد سبق أن أشرت فى خاتمة هذا البحث الى ما عمد

اليه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز عندما تولى أمور المسلمين بعد فترة من الحكم الاموى انهارت فيها قواعد العدل الاسلامى فانقلبت الخلافة ملكا عضوضا ، وسارت أموال المسلمين هملا مباحا ، وتراكمت المظالم بسبب انحسار الروح الاسلامى وضعف سلطانه على النفوس فذهب الامويون كل مذهب ، وساروا مع كل ريح ، يحبسون الحق ، ويبذلون الباطل ، الى أن ولى أمور المسلمين عمر بن عبد العزيز الذى كان عهده بقية من عهد الخلافة وقبسا من مشكاة النبوة الرحيمة ، فأرغم المجتمع الاموى العنيد على أن يسير مع الحق راضيا أو كارها ، فذهب يصفى الامتيازات ، ويعيد للروح الاسلامى عظمته وروعته وجلاله ، ويؤكد للمال قدسيته وحرمته ، وللشورى أهميتها وفلسفتها ، وللمسلم عزته وكرامته ، معتمدا على سلطة التنفيذ التى لم يكن لها بديل يمكن عن طريقه رد الامويين ليستقيموا على الطريق •

ولا يستطيع أحد أن ينكر مدى المظالم التى حلت بكثير من أبناء الاسلام فى كثير من المجتمعات الاسلامية اليوم على أيدى حكام اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا يقمعون كل صيحة من صيحات التعبير عن الظلم ويسمون ذلك بالمحافظة على القانون والنظام ، مجتمعات أصبح المجرم فيها سعيدا حظيا ، والصالح محروما شقيا ، المواهب البشرية ضائعة أو زائغة ، لا يلتفت اليها ولا ينتفع بها فعادت وبالا على أصحابها ، مجتمعات يتولى أمور المسلمين فيها على اختلاف أنواع الولايات ، من لا يوثق فى كفاءتهم وأمانتهم ، بل ولا فى ولائهم لادنتهم ، مجتمعات فقد فيها المسلمون أمنهم على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، قد أصبح فيها الذئب راعيا ، والخصم الجائر قاضيا حتى أصبحت الحياة فى ظل تلك المجتمعات جحيما لا يطاق •

لذلك فان من أقدس ما يمكن أن يقدمه كل حاكم مسلم يرعى الله ويحتكم الى سلطان الضمير ويدرك انه غدا موقوف أمام خالقه وبارئه يحاسبه على أمانة الحكم ومسئولية قيادة امة مسلمة أن يرد المظالم الى أهلها ويعيد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ، ويحررهم من كل شعور يغض من كرامتهم وينتقض من انسانيتهم • وأرقى ما يمكن أن يقدمه الحاكم وهو على الطريق برد المظالم الى أهلها هو تحقيق الامن للانسان المسلم بعد أن عاش طويلا أسيرا للخوف ، ابتداء من الخوف على لقمة العيش الى

الخوف على الحياة من أن تزهق بدعوى أو بأخرى قد لا يكون لها أساس وقد لا تستند الى سبب مشروع اللهم الا ان تكون الدعوى من تدابير الحكم وأساليب السياسة التى أصبحت فى مجتمعات اليوم ولا ضمير لها فهى كجمل هائج حبله على غاربه يطأ بخفيه كل من يلقاه فى طريقه .

ولا شك أن تحقيق الأمن للانسان المسلم من أقدس ما يمكن الوفاء به ، لان للخوف آثارا تفسد العقل وتذهب بالتفكير وتجعل الانسان أسيرا للخوف الدائم من العواقب فتهون عليه انسانيته ويضطر راضيا أم كارها أن يستسلم لمنطق الاقوياء أصحاب الامتيازات ومن بيدهم كل مقدرات الحيــاة .

هذا ما أردت الاشارة اليه وأنا بصدد الحديث عن رد المظالم الى أهلها وهى من أولى واجبات الحاكم التى يجب تقديمها على جميع الاعتبارات وأضيف الى ذلك أن رد المظالم الى أهلها مع كثرتها يحتاج أساسا الى أقوى الايدى وأنفذ الاوامر ما دام المسلمون فى مجتمعات تجاهر الناس فيها بالظلم والتغالب وظن الاقوياء الظلمة ان لن يقدر عليهم أحد دون خشية من قانون أو دون خوف من بقية ضمير ولا ريب أن أقوى الايدى هى يد الحاكم ، وأنفذ الاوامر هو أمر الحاكم وبالجملة هى الاعتماد على سلطة التنفيذ لردع المتغلبين وانصاف المغلوبين بالحصول على حقوقهم واسترداد حرياتهم وانتزاعها من أيدى كــل من استحوذ على مقدرات الحياة ولم يحاول ردها الى أصحابها الشرعيين .

تلك هى أظهر التحديدات التى رأيت أنها تمثل التزامات على كل حاكم مسلم تمليها المثل العليا للدين والمصلحة العامة لجماعة المسلمين واذا وفــّى الحاكم بهذه الالتزامات فانه يكون قد وفى بأمانة الشكر وعرفان الجميل لله ســبحانه وتعالى وسيذكر ذلك عندما يلاقى ربه ويسأله عن سابق ما قدمه لمولاه فى دار العمل والابتلاء وسيزداد شكره وعرفانه عندما يحظى برضاء خالقه فى دار الثواب ويحيا حياة أخرى لا تقاس بملايين السنين لانها الخلود بجوار مانح الخلود .

تحديدات مرتبطة بواجبات العلماء

سبق أن أشرنا الى مسئولية القيام بواجبات العبودية فتكلمنا عن الحاكم كأظهر العناصر البشرية المسئولة عن القيام بواجبات العبودية ثم اتبعنا ذلك بالحديث عن مسئولية العلماء فى اقامة واجبات العبودية ورأينا أن نسوق فى خاتمة البحث ونهايته بعض التحديدات التى ترتبط بمسئولية العلماء عن القيام بواجبات العبودية لله فى الأرض •

ولا شك أن دور العلماء فى حياة المسلمين المعاصرة على درجة عالية من الخطورة فى وقت يقتسم العالم نظامان اجتماعيان يختلفان اختلافا جوهريا فلسفة وواقعا ، وأبناء الاسلام مذبذبون مضطربون حيارى فى جهالة عمياء ، يجذبهم هذا النظام مرة ، والاخر مرات ، حتى أصبح لكل نظام من الانظمة من أبناء الاسلام من هم أكثر حماسة لكل نظام من أبناء النظام نفسه ، حتى أصبح فريق منهم عونا للزمان على الاسلام والمسلمين ويرجع ذلك بالدرجة الاولى الى جهل أبناء الاسلام بطبيعة دينهم ومسئولياتهم نحو اقامته ، كما يرجع الى الشحنات العاطفية التى يلهب بها دعاة كل نظام دماء أبناء الاسلام لاعتناق مبادئه والترويج لها ، علاوة على ظروف تاريخية تركت رصيدا مؤلما فى عقول المسلمين لضعف الوعى لديهم نتيجة فترات من الاستعمار امتدت عشرات السنين ، حاول المستعمرون فيها انتزاع الصبغة الاسلامية عن قصد منهم وفق مخطط مرسوم محكم للحيلولة دون المسلمين والرجوع الى ماضيهم وأمجادهم باعتبار الاسلام هو الخطر الذى يتهدد تلك الانظمة ويأتى عليها كما سبق أن أتى على أشباهها ونظائرها عندما أهل من قبل الصحراء وفى مدة لا يحسب لها فى عمر الزمن حساب •

تلك هى بعض أظهر الاعتبارات التى تجسم مسئولية العلماء أيا كان مشربهم باعتبارهم أقرب الناس الى مصادر النور ، وأقدرهم على ادراك حقائق الدين الاسلامى •

وعند التحديدات المرتبطة بمسئولية العلماء نسوق الاساسيات التالية فى ايجاز فيه المامة كافية لقصدنا

اولا : الاسلام هو خاتمة الرسالات

من أهم ما يجب أن يركز عليه العلماء هو تذكير الناس بأن الاسلام هو دين الفطرة وليس منفصلا عن غيره من سابق الرسالات فهو يدعو الى توحيد الاديان ، وأن التفرق فيها على وحدة أصلها خروج عليها جميعا ، لان الفطرة الانسانية مادامت واحدة فى صميم كل نفس فلا معنى للاختلاف فى مقتضياتها ويقول تعالى :

« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » •

ولقد ارتضى الله سبحانه وتعالى صيغة الايمان لمن آمن به فجأة أمره بها فى قوله تعالى :

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» •

ولقد شدد الله فى وجوب الايمان بجميع الرسل ليقيم مبدأ توحيد الأديان على أقوى أساس فقال تعالى :

« ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا » •

وأمثال هذه النصوص تزدحم بها صفحات القرآن الكريم ، تؤكد ان الاسلام لم يأت ليزيد عدد الاديان واحدا بل هو الدين الذى بعث الله به الرسل وأنزل من أجله الكتب •

يضاف الى ذلك ان الاسلام هو خاتم الرسالات ونبى الاسلام هو آخر الانبياء فلا رسالة بعدها ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم فالاسلام للبشرية كلها فلم يأت لشعب من الشعوب ولا لامة من الامم ،

ولا للون من الالوان ولا لوطن من الاوطان وانما هو رسالة البشرية كلها أحمرها وأسودها قاصيها ودانيها من يوم أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم الى أن تقوم الساعة .

وعلى هذا الاســـاس فانه واجب التبليغ لكل أمم الارض وشـــعوبها وواجب الاقامة حتما رضى بذلك من يرضى وسخط من يسخط ، وعلى ذلك لا يكفى الاسلام من المسلمين أن يحققوه فى أنفسهم بل يطلب اليهم المحافظة عليه ودعوة البشرية اليه وقتال كل من يتمرد عليه من أبنائه وغير أبنائه حتى يتمكن فى الارض ويزيح من على الطريق الى الله العواهل المتحكمين فى رقاب العباد ويخلص الاقليات المسلمة من قبضة الجاهلية على أى أرض غلبت تلك الاقليات ، وتحت أى حكم قهرت وفى أى زمان وجدت .

ومسئولية اقامة الدين وحراسته ، والدعوة اليه وتبصير الناس به ، مسئولية مستمرة لا تتوقف يتلقاها جيل عن جيل ، ويتناقلها المسلمون عبر القرون والسنين ، ومن أجل ذلك شرع الاسلام الجهاد وحبب المسلمين فيه باعتباره الضمانة الخالدة خلود الاسلام نفسه ، ينصر الله به حججه وبراهينه ، ويمكن به للاسلام فى الارض ، ويقطع به دابر كل كفار عنيد ، ويرد به كيد المتربصين بالاسلام والمسلمين . هذا هو أول تحديد يرتبط بمسئولية العلماء عليهم تبيانه والدعوة اليه ، باعتبـــاره أخـــطر المسائل فى نظرية الدين وكان له الاثر الكبير فى دخول الناس أفواجا فى الاسلام فى فجر الدعوة الاسلامية .

ثانيا : وجوب اقامة أحكام الاسلام

لقد مضت على المسلمين قرون وأحكام دينهم معطلة حتى ما كان منها مرتبطا بمعانى الاعتقاد ، فالشعائر معطلة حتى ما كان منها مقاما على سنة الاعتياد قد خلت تماما من نية الاخلاص فى أدائها . فالمسلمون اليوم لا يكاد يتجاوز ايمانهم درجة الايمان الشعبى الساذج ، مساجد الله وبيوته مهجورة ، وأماكن اللهو والفجـــور تعج بالاثم وتطفـــح بالفجور ، يسارع المسلمون الى دواعى الشيطان ، ويتثاقلون كلما دعى داعى الرحمن ، مع فداحة الذنب عظم المصيبـــة . وليست الصلاة هى الشعيرة المهملة المتروكة ، بل كل شعائر الاسلام لو أحصينا من يؤديها

لظهر لنا جليا أن المسلمين لا يربطهم باسلامهم الا اسم سجل فى شهادة الميلاد • ولو سقنا حديثا واحدا للنبى صلى الله عليه وسلم يحدد به موقفه ممن لا يؤدى صلاة الجماعة لادركنا مدى الجرم الذى يرتكبه التاركون لشعائر دينهم ، المضيعون لها • فعن ابى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب يحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف الى رجال فأحرق عليهم بيوتهم •• (١) •

والاسلام عقيدة قبل أن يكون نظاما ، وأخلاق قبل أن يكون تشريعا وقانونا ، والواقع أن معظم ما جاء به الانسلام من عقائد وأنظمة وتشريعات وقوانين وأخلاق غير ظاهرة وبارزة فى حياة المسلمين بالدرجة التى تصبغهم بالصبغة التى أرادها الله لهم باعتبارهم الامة الوسط المسئولة عن قيادة البشرية ، رغم أن اقامة النظام الاسلامى بكلياته واجبة الاقامة قطعا فريضة من عند الله لا عذر فى تعطيلها أو عدم اقامتها ، وصفحات القرآن الكريم مشحونة بخطابات التحذير والوعد والوعيد بغضب الله وسخطه على كل من يعطل أمرا من أوامره لقوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم : •

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »

وفى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » •

لذلك فان على علماء المسلمين تبعة وأمانة نشر الوعى بشتى السبل لدى أبناء الامة الاسلامية وتبصيرهم بضرورة اقامة كل ما جاء به الاسلام من أحكام على مستوى الفرد وعلى مستوى الاسرة وعلى مستوى

---

(١) عمدة القارىء • ج ٢٤ •

الدولة ، وأخص بالذكر منها ذلك الجانب الذى فقـد روعتـه وقدسيته وجلاله وهو الجانب الاخلاقى وفقدان سلطان الضمير الذى كان أقوى وازع عرفه تاريخ الاخلاق عبر القرون والاجيال •

ثالثا : تحديد موقف الاسلام من الانظمة المختلفة

من الواجبات الملحة التى تقع على عاتق العلماء مسئولية الوفـاء بها هى تحديد طبيعة النظام الاسلامى وعلاقة الانظمة التى تقسم العالم به •

وأول ما ينبغى تعريف المسلمين به هو أن نظامهم الذى ارتضاه الله لهم هو نظام ربانى من عند الله لا من صنع البشر وعلى هذا الاساس فهو نظام كامل للدين والدنيا فيه كل صفات الكمال المتصف بهـا خالقنـا ومولانا • فالاسلام منهج الهى كامل شرعه أحكم الحاكمين وأعـلم العالمين ومن أحاط علمه بوجوه المصالح جميعها ، دقيقها وجليلها ، خفيها وظاهرها ، ووضع كل شىء فى موضعه الذى لا يليق به سواه لعلمه أن فيه مصلحة عباده والوفاء بجميع ما فيه صلاحهم واستقامة أمورهم ومن ثم استوجبت شريعته أن تكون حاكمة لا محكوما عليها •

أما الانظمة الوضعية فهى من صنع البشر • فيها كل ما فى طبائع البشر من عجز وقصور وعدم شمول باختلاف واضعها وظروف وضعها والبيئة التى وضعت من أجلها وزمان وضعها ، على ذلك فهى أنظمة ضيقة ان صلحت لزمان فلا تصلح لغيره ، وان استجابت لمكان فلا تستجيب لآخر، وكم رأت البشرية العديد من الانظمة التى تعاورت عليها • منها ما أصبح مجرد ذكريات ومنها ماهو قائم مستحدث لعجز السابق عن الاستجابة لمقتضيات الحاضر والحاضر غدا سيلحقه من الكلال والاعياء مايصبح معه عاجزا عن الاستجابة لمتطلبات المستقبل وهكذا يمضى كل نظام بشرى الى مداه المقدور الذى قد يقصر أو يطول •

ولكن النظام الاسلامى سيبقى ولو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية لانه من عند الله وما كان من عند الله فليس له أمد ينتهى اليه أو حد يقف عنده لا يتعداه •

وعلى هذا الاساس فان ربط النظام الاسلامى بأى نظام بشرى ضرب من العبث ، وحيلة رخيصة فليس الاسلام هـذا النـظام أو ذاك •• وصحيح أن بعض الانظمة قد تلتقى بالاسلام فى جزئية من الجزئيات كتوفير لقمة العيش للانسان مثلا ، أو ضمان حرية الكلمة ثم يمضى كل نظام الى حيث شاء واضعوه ويمضى الاسلام سامقا كريما عاليا يضمن للانسان خيرى الدنيا والآخرة بأجمل ما فيهما •• ومن هنا فلا ينبغى أن تطبع الاسلام بوصف هذا النظام او ذاك حتى لو استدعى ذلك حيل الحكم او تدابير السياسة • ولا شك ان هذا الواجب من أهم ما يجب أن يتصدى له العلماء ، يبينونه للناس ويدعون اليه •

رابعا : أسباب التمكن للنظام الاسلامى

من بين المسئوليات التى تقع على عاتق العلماء مسئولية الوفاء بها وتتقدم كل التبعات والمسئوليات هى تبصير المسلمين بأسباب التمكين للنظام الاسلامى والانقلاب الضخم الذى أحدثته الدعوة الاسلامية والذى كان غريبـا فى سرعته وكان غريباً فى عمقه ، غريبا فى سـعته وشموله ، غريبا فى وضوحه وقربه الى الفهم •

ولا شك ان اسباب التمكين ترجع أول ما ترجع الى حقائق الاسلام وحقائق ما جاء به من أحكام للوفاء بمتطلبات البشرية كما ترجع الى ما كانت تعانيه البشرية من جراح وآلام •

ومن أهم حقائق الاسلام انه نظام ربانى وللبشرية كلها وأنه غير منفصل ولا منقطع الصلة بما سبقه من أديان ، كما أنه نظام كامل للدين والدنيا جاء لحفظ الدين والعقل والنفس والعرض والمال ، فضلا عن أن الشريعة الاسلامية هى الشريعة ذات النزعة الاخلاقية العـالية •

كل هذه الحقـائق على العلماء أن يبسطوها وفـق برامج مخـططة مدروسة ولا يكفى وفاء بها أن تكون موضـوعا لندوات أو خطـب ومقالات ، بل ان طريقة تحقيقها لن يتأتى لها النجاح الا عن طـريق المعاهد التربوية ابتداء من أدناها الى اعلاها يتناقلها الابناء من الصغر يقيمونها ويتكيفون بها ثم يتدرجون فى تلقيها كلما تقدموا فى مدارج

الادراك ، وهذا وحده كفيل بأن تدفع المعاهد العلمية الى المجتمع شبابا على درجة من الوعى والادراك يملك من اليقظة الدائمة ما يحميهم من الغزوات الفكرية المسمومة التى يشنها اعداء الاسلام على الاسلام والمسلمين ، كما أن تلك التربية الجادة ستدفع الى المجتمعات الاسلامية شبابا قادرا على حمل تبعات النظام الاسلامى فى السلم والحرب على حد ســـواء •

وفضلا عن ذلك فان بسط حقائق الاسلام وما جاء به من أحكام يجب أن يسعى اليها كل مسلم ويترسم خطاها كل سياسى ويمعن فى تأكيدها كل كاتب ويزيد فى تأصيلها كل فيلسوف ، باعتبار تلك العناصر البشرية من أقدر العناصر التى يعتز بها الاسلام فى حمل أحكامه والدعوة اليها ، فهم بلا شك أمنة المجتمعات الاسلامية وعصمة لها من التفرق والانقسام ان خلصت النيات وصدقت العزائم من أجل استئناف حياة اسلامية وفق ما جاءت به الشريعة من أحكام •

ومن أسباب التمكين التى ينبغى التنويه بها وشد الانتباه اليها نرجع الى حقائق جاء بها الاسلام ودعا اليها مجتمعات عاشت طويلا فى ظلمات بعضها فوق بعض ، فكانت تلك الحقائق نور الحرية الوضاء فى عالم ساده الظلام الدامس • ومن أبرز تلك الحقائق دعوة الاسلام الانسان الى التحرر من كل ما ينتقص من كرامته أو يستذله ويستعبده لتتحقق له العزة والكرامة فابتدأ بتحريره من كل شعور ، ابتداء من الخوف على الرزق حتى حرره من الشعور بالخوف على الحياة فالرزق بيد الله وليس بيد أحد سواه ، وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله • كما حرر الانسان من التبعية البغيضة والعادات الموروثة ومن الشعور بالضعف أمام قيم الحياة المادية والمعنوية سواء أكان الانسان هو المالك لها ، او كان غيره هو الحائز لها •

وعلى طريق التحرير سوى الاسلام فى التبعة والمسئولية بين من ترك نفسه للظلم وبين من يظلمه لأن المستكين للظلم ظالم لنفسه ، كما رفض الاسلام رفضا حاسما الاعتذار بالضعف فقال تعالى فى صفات المؤمنين :

« والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » •

كما قال الله تعالى فى المتخاذلين الجبناء .

« ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

هذا قليل من كثير جاء به الاسلام لتحرير الانسان واحياء غريزة الرجولة فى النفس الانسانية حتى ارتفع بالانسان الى درجة البطولة ، وطالب أهله بمقتضياتها وهى :

١ - قول الحق ولو على النفس والاقربين فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » .

٢ - ايثار المحتاج على النفس ولو بشربة ماء الى الايثار بالنفس والتضحية فى مجال الشرف والكرامة فقال تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

٣ - الترفع عن تطلب الثناء على الاحسان فى كل عمل وموقف فقال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منك جزاء ولا شكورا » .

ومن الحقائق التى جاء بها الاسلام هو دعوته الى الاخاء الاسلامى والاخاء الانسانى والتكافل والتساند والتعارف بين الامم والشعوب لان الله سبحانه وتعالى خلق البشر للتعارف والتآلف وليس للتنافر والتخالف .

تلك هى عينات متفرقة من حقائق الاسلام وما جاء به من أحكام ، وما أتى به من حقائق عامة . نحن اليوم أشد شوقا الى رؤياها وادراكها والتكيف بها على أيدى علماء المسلمين باعتبارهم كما سبق أن قلت أقرب الناس الى مصادر النور وأقدرهم على حمل أمانة التكليف ومسئولية هداية البشرية .

أما أسباب التمكين للنظام الاسلامى التى كانت ترجع الى ما كانت تعانيه البشرية من آلام وجراح فهى معروفة تاريخيا ويكفينا تصوير القرآن الرائع الصادق فى قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » •

كلمة أخيرة فى هذه الخصوصية أن أسباب التمكين للنظام الاسلامى فى الماضى سواء ما رجع الى الحقائق أو ما رجع الى أوضاع البشرية المتهالكة ، هى نفسها فى القرن العشرين الذى لا يعرف الا شريعة القوة والغلبة والاستعلاء ، يستعملها الاقوياء فى مواجهة الضعفاء أيا كان مصدر القوة ماديا أو معنويا وأيا كان مصدر الضعف ماديا كان أو معنويا •

ومن هنا وجب على العلماء تكرار الدعوة الى القوة العادلة التى يعرفها الاسلام وهى التى تسترد حقا وتدعو الى حرية وتنصف مظلوما وتنقذ شعوبا من براثن أنظمة لا تعرف الا شريعة السيف وامتصاص دماء الشعوب ، وشريعة القوة الغادرة التى تسود البشرية اليوم على أشدها بالنسبة للاسلام وبلاد المسلمين حيث أفردوها بعداء ليس فوقه عداء فى عنفه وقسوته ولكن مهما كانت قوة المخالفين فى قسوتهم وضراوة عدائهم فانهم على كثرتهم وقوتهم يدركون عن يقين تاريخ المسلمين المجيد وما أصاب أشباههم وأمثالهم على أيديهم فى كل معركة تحركت فيها سيوف المسلمين انتصارا للحق واعلاء لكلمة الله فى الارض • وأن المخالفين مهما يوحى ظاهرهم بوحدة صفوفهم وتضامنهم ، فانهم أصحاب قلوب متفرقة تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وسيبقى هذا شأنهم وتدوم على ذلك طبائعهم • ويصور ذلك القرآن أبلغ تصوير وأعمقه فى قوله تعالى فى سورة الحشر :

« ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون • لانتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون • لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا

يعقلون • كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » •

واذا كان هذا هو شأن المخالفين أعداء الدين ، فان شأن المؤمنين كان ولا يزال وسيظل نورا يضىء للبشرية ما أظلم من حياتها مصداقا لقوله تعالى :

« ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا ايمانا وتسليما »

وهكذا ينبغى ان يفهم المسلمون نظامهم ومدى عظمته ومدى عمقه وشموله ، ومدى اسعاده لهم فى سلمهم وحربهم ، فيما بينهم وفى علاقاتهم بأمم الارض وشعوبها الاصدقاء والاعداء على حد سواء •

خامسا : عدم موالاة اعداء الدين

ويرتبط بواجبات العلماء فى كل بلد اسلامى أن يدفعوا عنه أعداءه من المنافقين والمرجفين والذين فى قلوبهم مرض سواء أكان هؤلاء من أبنائه أو غير أبنائه خصوصا وأن بعض المسلمين يسيرون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم • وما اكثر المذاهب المختلفة التى تهب على العالم الاسلامى من حين لاخر وهى مذاهب لا تؤمن الا بالمادة وتتخذ منها أساسا لفلسفتها فى الحياة ، وبجانب المذاهب هناك دعاة الانحلال والفجور باسم الحرية تارة ، وباسم المدنية مرات ، حتى ظن الكثير أن الخلاعة نوع من الرقى ، وأن التبرج نوع من الحرية فى غير حياء من النفس أو من الناس أو من الله ، وهناك من الكتابات ما هو مثير للشهوات مستدر للغرائز ، ذاعت وراجت ، الامر الذى يتهدد الاخلاق الاسلامية من كل جانب • لذلك فان تصدى العلماء لامثال تلك المظاهر التى ملأت الحياة الاسلامية وطمست معالمها وكادت تأتى على البقية الباقية من الخلق الاسلامى العالى ، من أولى مايجب على العلماء التصدى له ومحاربته • وقد أشار القرآن الكريم والسنة الى الكثير من مواقف الاسلام من كل تلك المظاهر ، يقول تعالى فى سورة الاحزاب يهدد ويتوعد :

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » .

هذه عينات من تحديدات ترتبط بمسئولية العلماء يجب الدعوة اليها دون خوف من وعيد أو خشية من تهديد ، وغير ذلك من التحديدات كثير لو فهم الاسلام على حقيقته وقام العلماء بالعمل على توجيهه وجهتـه الصحيحة وأنزلوه منازله . ومن أجل مايمكن أن يقدمه العلماء هو أن يكونوا أهل مشورة الحاكم المسلم يأخذون بيده ويسددون خطاه فى أمانة واخلاص .

فاذا قام العلماء والحكام بهذه المسئوليات وأمثالها التى سقتها على سبيل المثال فانه مما لا شك فيه أن شرارة الايمان ستنبعث من جديد قوية عملاقة ، وسيتداعى أمامها كل نظام يتنكر للعدل ويقوم على الظلم ، وعند ذلك سيعلم من يعاندون الاسلام والمسلمين أنهم يعيشون فى بيوت أوهى من بيوت العنكبوت .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصحيفة

الفصـــل الثـــانى

الفصـــل الثـــالث

الفصـــل الرابع

الفصـــل الخامس

الفصـــل السادس

المراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — السنة النبوية

٣ — السياسة الشرعية

٤ — أعلام الموقعين — لابن قيم الجوزى

٥ — السيرة النبوية — لابن هشام

٦ — أدب الدين والدنيا — للماوردى

٧ — العواصم من القواصم — للقاضى أبى بكر بن العربى

٨ — الأحكام السلطانية

٩ — تاريخ الخلفاء — للسيوطى

١٠ — احياء علوم الدين — للغزالى

١١ — عمدة القارىء

١٢ — كتاب الخراج — لأبى يوسف

١٣ — صحيح البخارى — (كتاب الشعب)

١٤ — البداية والنهاية — لابن كثير

١٥ — الموافقات — للشاطبى

١٦ — فتوح البلدان — للبلاذرى

١٧ — النظريات السياسية الاسلامية — دكتور محمد ضياء الدين الريس

١٨ — هداية المرشدين

١٩ — الجهاد — للامام محمد ماضى أبو العزايم

٢٠ — مختارات من اسلاميات — خالد محمد خالد

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١ / ٣٨١٧

مطابع الأهـرام التجارية

مطابع الأهـــرام التجارية